



JAFET LIB.  
21 FEB 1991



[HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/GROUPS/BOOKSPHILOSOPHY](https://www.facebook.com/groups/bookphilosophy)

**BooksPhilosophy**

Cat. May 1943



165

1893  
A314A

عباس محمود العقاد

892.78  
Milliyana  
C-1

رَجَعَةُ أَبِي الْعَلَاءِ

ثمن النسخة ١٠ قروش

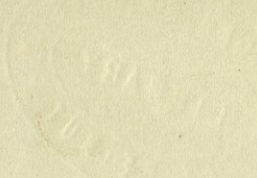
Cat. May 1943

١٣٥٧ - ١٩٣٩

58665

مطبعة مجازي بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠



XXXIII

1871 - 1872

1873



# تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت الصحف من أنباء سورية  
« أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي  
أزمعت إقامته في المعرة على قبر أبي العلاء ، وأنها تعد  
العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته ،  
أو على ميلاده كما هو الأصوب

فلمعري كاره الحياة يعاد طوعا أو كرها إلى الحياة  
كرة أخرى ! .

« خطر لي هذا الخاطر فأحييت أن أتخيل » رهن  
المحبسين » يجوس بيننا خلال الديار ، ويتمرس بأحوال  
الأمم في عالمنا الحاضر ، فاذا هو قائل؟ وماذا هو فاعل؟

لا شك ان أحوالنا كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة في أيام أبي العلاء ، ولا شك أننا واجدون في كلامه حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً على جميع تلك الأحوال ، فأما ما يختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل استطاع قياسه والنفوذ إلى رأى أبي العلاء فيه وفقاً لذلك القياس ؟ وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم إلى الجهر برأيه فيه ؟ ذلك ما قد حاولناه في هذه الصفحات<sup>(١)</sup> ، ونحسب أننا قد أصبنا فيه بعض التوفيق ، ان تعذر التوفيق كله في مجال الفرض والتخمين . ✕

\*\*\*

ومضت فترة ولم نسمع خبراً عن المحفل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟ وهل تم نحت التابوت ؟ وهل تمت  
 (١) نشرت هذه المقالات والأبواب في صحيفة البلاغ الغراء ما عدا الأربع الأخيرة فلم يسبق نشرها .



العدة؟ وهل شُرِّيتَ الدور التي تحجب قبر الحكيم؟  
الأرجح أن هذا كله ماضٍ في طريق التمام، وأن المحفل  
المنظور قائمٌ في مواعده قريب... لكن أبا العلاء  
الذي بعثناه وأطفناه بالعالم كله مع بعض تلاميذه قد بلغ  
غاية المطاف، وسئم المضيفين والأضياف، وأحب أن  
يثوب إلى داره وأن يقر في قراره. فنحن هنا مثبتون  
قصيداً لأبي علائنا يودع به من سوف يستقبلونه،  
ويعتذر به لمن يمسكونه في الدنيا ولا يرسلونه، ويقول  
أو نقول في مكانه، ما ينبغي أن يجرى على لسانه. وذلك  
هو نشيد الوداع في ختام هذه الصفحات، أنابنا في  
نظمه على سنة اللزوميات، فله الحسنة منه، وعلينا نحن  
السيئات!

\*\*\*

قيل أن بعض المكتبات الإيطالية أهابت بالأدباء

من العرب أن يوافقها باسم الأديب الذي تجتمع فيه  
خصائص العبقرية العربية ، فأجمعت الآراء على أنه هو  
أبو العلاء .

وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأى فى مزايا  
الفنون والآداب ، ولكننا تراها فى هذه الفتوى قد حكمت  
بالصواب ، وأجابت أحسن الجواب . إذ الحقيقة أن حكيم  
المعرة خير من يمثل الذهن العربى والسليقة « السامية »  
غير مستثنى فى ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب . . .  
لأن تمثيل الذهن غير تمثيل « الطبيعة العملية » التى يشرح  
فيها أبو الطيب للمكان الأول بين شعراء الضاد .  
وأبو العلاء هو الذى يمثل الذهن العربى فى تفكيره وفى  
مقاييسه وفى نظرتة إلى الدنيا ، دون سائر المفكرين  
من الشعراء .





## فهرس

صفحة	صفحة
الحكميان ١٥٨	تمهيد ٣
حكم وحكمة ١٧٢	وفد ١٠
خليفة دانتى ١٨٢	صاحب الجلالة المعرى ٢٤
لعب العبقرية ١٩٢	عالم السريرة ٤٠
الاختراع ٢٠٦	أبو العلاء هو أبو العلاء ٥٦
أقصى المغرب ٢١٨	بساط الريح ٧٢
أقصى المشرق ٢٣٠	حكم السيف ٨٤
زعيم الصين ٢٤٢	المستشرقون ٩٤
زهدان ٢٥٠	مع المشيعين ١٠٦
في مصر ٢٦٢	في بلاد الشمال ١٢٣
نشيد وداع ٢٧٢	جر الذبول ١٣٤
	المرأة ١٤٤



وَفِي

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها  
فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت اقامته  
في المعرة على قبر حكيمها وحكيم العرب أبي العلاء ،  
وأنها تعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة  
هجرية على وفاة الشيخ ، والصواب على مولده كما هو  
ظاهر ، فإن الأمد لا يزال بعيدا بيننا وبين ذكرى وفاته ،  
إلا إذا كان الغرض التقريب لا التحقيق ، ولا حاجة  
إلى ذلك لقرب ذكرى الميلاد

\*\*\*

تمثلت مندوبى الحكومة السورية يحملون قرارها



إلى شيخ المعرة ، ويبلغونه أنهم سيبنون تابوتا على  
قبره ، وأنهم سيدعون علماء المشرق والمغرب إلى موطنه  
للاحتفال بذكرى ميلاده . فماذا يقول ؟ وماذا  
يقولون ؟

إن الشيخ ليتامل في مضجعه بعد أن استراح فيه  
مئات السنين ، وانه ليخاطب جدته اليوم كما خاطبه  
وهو في قيد الحياة وقيد المحبسين :

يا جدتي حسبك من رتبة

إنك من أجدائهم معزلا

أملني الدهر بأحـدائه

فاشتقت في بطن الثرى منزلا

ثم يسأل متثاقلا : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا

يُعلمونه من هم وماذا يبغون حتى يتهاقف قائلا : أتبنون

لى تابوتا ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولى :

إن التواييت أحداث مكررة  
 فجنب القوم سجننا في التواييت  
 فيحار الجماعة ، ولا يدرون بماذا يجيبون . ولكنهم  
 حريصون على إقامة التابوت ، وعلى تمجيد الرجل  
 وتشريف مدفنه وتشريف ذكره ، وسيكون بينهم  
 ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب  
 الخطاب والتدرج في المجاملة والارضاء ، فيقول قائل  
 منهم : أيأبي مولانا الكرامة والتشريف !

فيجيب الشيخ :

لا تكرموا جسدي إذا ما حل بي  
 ريب المنون فلا فضيلة للجسد

ثم يقول :

إذا أنا واراني التراب نخلي  
 وما أنا فيه ، فالتراب مؤنتي !



ثم يقول كما قال من قبل :

أرغب في الصيت بين الأنا

م ، وكم خجل النابه الصيِّت

وحسب الفتى انه مائت

وهل يعرف الشرف الميت ؟

فيلهم أحدهم أن يراجعه بيت من كلامه ، وأن

يذكره أنه ليس بميت وإنما هو حي خالد ، أو ليس

هو القائل :

وجدت الناس ميتا مثل حي

بحسن الذكر أو حياً كحيت

فيأنس أبو العلاء إلى ما سمع ، ويعجبه أن يُروى

له شعره بعد مئات السنين ، ويسألهم : وما تريدون

الآن من جمع الجموع حول هذا التابوت الذي تبنونونه ؟

أتراكم تمدحونني وأنا القائل :

إن مدحوني ساءنى مدحهم

وخلت انى فى الثرى سُخِمت ؟

فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف  
يتسلل إلى كمين الرضى من سريرة الشيخ ، ويقول  
له : بل نثنى على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجبت من  
فضلك وأحيت من ذكرك وحفظت من أترك ، فانما  
يعيننا ولا يعيبك أن ننسى هذا وتتمادى فى نسيانه ،  
ولن يضيرك أن نكف عن مديحك وأنت القائل عرفانا  
بقدرك :

فلا وأيبك ما أخشى انتقاصا

ولا وأيبك ما أرجو ازديادا

ولكنه يضيرنا كل الضير أن يثنى عليك الغرباء

ونحن سكوت ، وأن يمدح الناس من ملل الأرض حكاءهم

وشعراءهم ولا تمدحك ونشيد بمناقبك وسجايك .



وكأنما يطلق ألسنتهم اصغاء الشيخ وارتياحه وما  
يعهدونه فيه من حب الصراحة والفكاهة فيقول منهم  
قائل: ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح وقصاراك من  
خوفه أن تحسب أنك سخت في باطن الأرض؟؟ لقد  
أصبح الخيال حقاً والحسبان واقعا، وجربت بطن  
الثرى مئات السنين فلا ضير عليك اليوم أن تسمع من  
المديح الدواوين والأسفار!

فيضحك الشيخ ويتفتح للحديث ويجري معهم في  
مجرام فيقول: لا يغرنكم يا أبنائي أنني أزهدي في المديح ✓  
وأنتي أسكن إلى الزهد فيه وفي المجد والسلطان، فما  
أبرىء نفسي من كبرياء، وما أزعم أنني اخترت العزلة  
والفاقة عن صغر في المطامع أو قناعة بالحظ الوضيع،  
ولكنني لا أرى لأحد عيشا في هذه الدنيا إلا أن  
يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها: ✓

ذر الدنيا إذا لم تحظ منها  
 وكن فيها كثيرا أو قليلا  
 وأصبح واحد الرجيين : إما  
 مليكا في المعاشر أو أويلا  
 وما أتيت لي أن أصبح مليكا في المعاشر ، فأصبحت  
 باختياري راهبا مبتلا أعرض عن الدنيا ولا أريها أنها  
 هي التي أعرضت عني ونجست من حقى !  
 إذا كان هذا الترب يجمع بيننا  
 فأهل الرزايا مثل أهل الممالك  
 فيقول قائل منهم : نعم أيها الامام . لقد كررناك  
 حتى فهمناك كما قلت في بعض شعرك  
 يكررنى ليفهمنى رجال  
 كما كررت معنى مستعادا  
 فأتخفى علينا خافية من هو اجس ضميرك ولا تعيب



عنا خالجة من خوالج طبعك ، وإنك لمناضل مكبوح  
ومغامر محبوس ، وأن نفس الزاهد منك لمقرونة بنفس  
السيد الذي لا يدين في الحياة لغير حكمه ، ويأنف أن يموت  
حتف أنفه ، وقد عشت هكذا في عالم الرأي أمراً لا يأمرك  
الحاكمون ، وأياً لا يخضعك المغلبون ، وتمنيت يوماً :  
من السعد في دنياك أن يهلك الفتى

بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا

فإن قبيحاً بالمسود ضجعة

على فرشه يشكو إلى النفر الكربا

وترددت بين القلم والسيف فقلت :

وإن العز في رمح وترس

لأظهر منه في قلم ودرج

وما أختار أنى الملك ميجي

إلى المال من مكس وخرج

فدع الفيك من عرب وعجم  
إلى حلفيك من قتب<sup>(١)</sup> وسرج

سراجك في الدجنة عين صار

وإلا فالكواكب خير سرج

ويقول الشيخ مبتسما : لقد أحصيتم على فلتات

اللسان وشوارد الأمانى وشطحات الأوهام ، وعملمتم

بوصيتي حين قلت :

اقرأ كلامي إذا ما ضمني جدثي

فإنه لك ممن قاله خلف

ولكني كنت أوتر لو نسيتم بعضه ومنه هذا الذي

ذكرتموه ، فإحسب إلا أنني حاذفه من جملة كلامي

لو تمكنت من تلك الأوراق التي حفظتموه فيها .

فاحذفوه !



ثم يخطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لا تُضَيِّع ،  
 فيسألونه : الأنحمل إليك تلك الأوراق فراجعك فيما  
 تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن تنظر في الدنيا نظرة  
 وتطلع منها على ما استجد من حالها وتبدل من خلائق  
 أهلها .

فاذا الشيخ يتجههم هنيهة وقد عاودته سوداؤه  
 وانقباض صدره وذهب يقول :

أما خلائق أهل الدنيا فاعما يتبدل الرأى فيها لمن  
 يراهم على إحدى حالتين :

فمن قال إنهم كانوا فى غابر زمانهم أهل ورع وصلاح  
 وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت عليهم عوادي الزمن  
 ففسدوا عن سبيل الخير ، فذلك خليق أن يصف منهم  
 شأننا ، ثم يعود بهم إلى شأن غير الذى وصف .

ومن قال إنهم اليوم جاهلون وغداً يعامون ، وأنهم

اليوم على عوج وغداً يستقيمون ، فذلك أيضاً خليق  
 بتبديل الرأى فى الناس عصرأ بعد عصر وأمة بعد أمة .  
 وما أنا وهذا أو ذاك ؟ أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم  
هكذا كانوا منذ كانوا .

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطروا

فلا يظن جهول أنهم فسدوا

ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء  
 فيهم وعجبت من أمرى معهم على شدة علمى بهم ومازلت  
 أستغرب من تلك الحال التى أحاولها وتحاولنى :

واعجب منى كيف أخطىء دائماً

على أننى من أعرف الناس بالناس

حتى انتهيت إلى رأى لا يتبدل :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً

فذاك هو الذى لا يستطيع



نعم ذلك الذي ما استطعته ولن تستطيعوه ، ولكن  
نزول كما زال آباؤنا

ويبقى الزمان على ما ترى  
وتذهبون في كل مذهب وتطمعون في كل مطمع ،  
ثم تعلمون بعد خطأ لا تزالون ترجعون إليه أنه  
حكم جرى للمليك فينا

ونحن في الأصل أغبياء !!

فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعم أن الموت  
يبريء الخلائق منه فما أنا إذا معكم لم أكد أشعر بظل  
الحياة حتى استرجعت من دائها كل ما كنت أشكوه  
وأعالجه وأرجو الغلبة عليه .... كلا يا ابنائي : لا تحذفوا  
حرفا مما كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما  
هو بضائر كم أن تجهلوه ، وهو منا ومنكم في الصميم ،  
وأنه لباقي في النفوس إن زال من الطروس .

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرة وبعثة الحكومة  
 السورية إليه ، وأخال أنني على صواب حين أزعمت أن  
 الشيخ في طليعة الحكماء الذين لا يغيرون ما قالوه في هذا  
 المعنى بعد آلاف السنين ، لأنه لم يؤمن بالنكسة بعد  
 العلاج ، ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء ، فيتطرق الخلاف  
 من أحد البابين إلى مجمل ما قال .

لكن شيمة واحدة في حكيم المعرة إخالها لو تغيرت  
 قليلاً لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألغى  
 كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات ، ونخرج  
 يدوان يقرأه القارئ فلا يهجم في خاطره ذكر المعري  
 المعهود ، لأن تغير تلك الشيمة يخرجها خلقاً جديداً  
 لا يمت بقراءة ذهن ولا بأصرة نسب إلى ذلك الحكيم  
 الذي عرفناه .

وموعدنا بالكلام على شيمته تلك مقال قال .



صاحب المجلة الميرى!

« قلت في ختام المقال السابق ؟ » ان شيمةً واحدة  
في حكيم المعرة أخالها لو تغيرت قليلاً لتغيرت فلسفته  
جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند  
وكثيراً من اللزوميات ... »

فما هي تلك الشيمة ؟

هي السميت والوقار ، أو هي كما تقول في لغة

العصر الحاضر أدب البيئة وأصول « اللياقة » \*

وهذه الشيمة في الواقع وازع قوى عظيم الهيمنة

على جميع النفوس ، وان عدها بمضهم ثانية أو ثالثة أو

رابعة في ترتيب الزواجر الأخلاقية والنفعية ، لا اعتقادهم



إن الزواجر إنما تفعل في الطباع فعلها على مقدار ما يحيط  
بها من ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء  
وعناوين ، لا على مقدار بواعثها من الطبع ومن قوانين  
الاجتماع .

إن جميع الزواجر والأوامر والنواهي لا تُخرج  
دائماً ولا سحتوتا من كنز المرأة العجوز الذي تجمعها من  
الدوايق والسحاتيت ، ليكون لها بعد وفاتها مشهد  
« يليق » ويجري مع العرف الشائع بين البيوت .

وان الرجل ليقدم على جميع المحظورات غير حافل  
بالعقاب أو سوء المآب ، حاشا المحذور الذي « يسقطه »  
في نظر الناس ويخل بقواعد المروءة في البيئة التي هو  
منها ، فذلك حد لا يتخطاه إلا وقد تخطى قبله جميع  
الحدود واجترأ على جميع المنكرات

وإن الخمر والزنا والسرقه ، لفي درجة واحدة من

التحريم في بعض الشرائع السماوية ، واكن الناس  
 بجانبونها أو يستيحونها على حسب نصيبها من الزراية  
 في البيئات التي يعيشون بينها ، ونعنى بها بيئة المعيشة  
 وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من  
 يباهى ببعض تلك المحظورات في بعض بيئاته ، وإن  
 كانت في بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع  
 إلا أن يزف بنته أو بنتها مثلا في شوار أقل من الشوار  
 المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع في دين ولا في قانون  
 ولا في شرع معقول ، ولكنه ممنوع في أدب البيئة  
 أو أدب اللياقة ، فهو إذن أصعب المنوعات .

والخلاعة هي غاية السقوط عند العرب أو عند  
 المتكلمين باللغة العربية ، وإنما الأصل في الخليع أنه الرجل  
 الذي يخلعه أهله ويبرأون منه ، فهو من ثم يجب على



نفسه أكبر العار ، وإن لم يقارف شيئاً من معاصي الدين  
والقانون على حسب العرف الحديث

وانهم ليجدون متسعاً من القول في كل عاص ،  
وكل جرم ، وكل آثم إلا الخليع فلا متسع فيه من القول  
بعده الخلاعة ... وماعسى أن يقول القائل في خليع ؟؟ تلك  
غاية الغايات وقصارى الموبقات ، فلا ملامة ولا عتاب !

✧ المعرى مثل من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة  
أو على سلطان أدب ( اللياقة ) وأدب العرف والتقاليد

فهذا الحكيم الذي عرض على فكره كل أصل  
من أصول الحكمة وكل مذهب من مذاهب الدين ،  
فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له إماماً غير  
العقل في صبحه ومساءه ، هو بعد هذا كله أسير « أدب  
اللياقة » يمنع هذا الأدب ما ليس يمنعه شرع ولا فلسفة  
ولا عقيدة ✧

وهذا القائل

وسيان من أمه حرة

حصان ومن أمه زانية!

هو هو الذي يأتي أن يدخل الوليد على النساء

بعد بلوغه العاشرة، ويأتي أن تذهب المرأة إلى الحمام،

ويخشى على عرضها أن تخرج إلى الحج، فلا يعده

فريضة على عجز النساء ولا العذاري! \*

ذلك هو «السمت اللائق» بالمرأة في شريعة البيعة...

فالسيدة الحصان تنجبها الأسرة الوقور لن تكون إلا

على هذه الصفة، ومتى وصلنا إلى السمت اللائق أو إلى

أدب اللياقة فأبو العلاء وسائر أبناء البيعة سواء،

والفيلسوف الذي قال :

كذب الظن لا أمام سوى الع

قل مقما في صبحه والمساء

مستتر ✓



لا يعنيه من أمامة العقل هنا إلا ما يعنى قعائد  
 البيوت وعجائز الأمهات والجذات ، ذوات البنات  
 اللائى يلتمسن الأزواج فى ستر وحشمة وصيان !  
 ولعلنا تسهلنا بعض التسهل إذ قلنا : ان أبا العلاء  
 وسائر أبناء البيئة سواء ، فانه لأشد تخرجا من كثيرين ،  
 وانه يحظر على نفسه ما يبديحه آخرون ، وانه ليحسب  
 الوقار جمالا لا يدانه جمـال فى الرجال ، فان حذر من  
 الشيخوخة آفة فاعما يحذر أن يدركه الخرف :  
 وما أتوقى والخطوب كثيرة

من الدهر إلا أن يحل بي الهتر

وإذارنى أباه فى صباه وهو يتخيل موقف الحشر  
 ورهبة القيامة وزحام العطاشى على الحوض فليس ينسى  
 أن يسأل عن ذلك الأب :

ألا ليت شعرى هل يخف وقاره

إذا صار أحد فى القيامة كالعين

وهل يرد الحوض الروي مبادراً  
 مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني ؟  
 فكأنه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ،  
 ثم يقف بالعقل عند باب الوقار أو أدب اللياقة ، ثم لا  
 يسأل هذا السلطان الجائر سؤالا واحداً من تلك  
 الأسئلة التي كان يشنها من كل جانب على جميع السلاطين  
 وجميع الدولات وجميع الأحكام ، ولو أنه سأل وأباح  
 نفسه الجواب الصريح لما أخذها بكل تلك الصرامة  
 ولا أحال عليها كل تلك القيود

أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبي  
 العلاء فهو أسباب كثيرة وليس بسبب واحد :

١ - مرجعه إلى تربية الأسرة فقد كان أبوه وأمه من  
 ذوى الوجاهة والصلاح . وكان آل أبيه يتوارثون القضاء  
 في بلده ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين



ورجال الحكم على شعائر المروءة والتعفف والأنفة من  
غشيان مواقع الشبهات ، وعلى الهيبة التي لا غنى عنها لمن  
يسوسون الرعية باسم الله واسم السلطان

٢ - ومرجعه إلى الخليفة العربية فقد كان أبو العلاء  
عربي النجر عربي الطبيعة يفهم أن العرض قوام الشرف  
والعزة ، وأن الابتذال هو الهوان الذي ما بعده هوان ،  
وأن الرجل الذي يجترىء عليه المجترىء بمذمة أو سخرية  
هو حمى مستباح ، وأن من لا حياة له لا حياة له ولا خير  
فيه ، وأن السنة ما سنه الآباء وجرى عليه العرف  
وسارت به الأمثال وحسنت به القدوة

٣ - ومرجعه إلى فقد بصره ، فإن الضرير قد يصيبه  
السخر والملام لأموار يواقعها البصير ولا من يسخر به  
أو يلومه ، وأن البصير قد يمارس من الشهوات ما يأمن  
الفضيحة فيه لأمانه من أن يطلع عليه أحد غيره ، وليس

ذلك في مقدور الضرير: فأما الفضيحة والعار وأما الزهد  
والوقار

٤- ومرجعه الى كبريائه وعزة نفسه، فان الأعمى قد  
تهون عليه الفضيحة في سبيل الشهوة، إلا أن تكون  
له كبرياء تأتي له المهانة والابتدال، فعند ذلك يوازن بين  
ما يكسب بالشهوة وبين ما يخسر بالابتدال، فيهنون عليه  
فقد الشهوات واقتناء الكرامة.

ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا  
بالسيادة عليها أو بالأعراض عنها، فأما الملك وإما  
الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين

فلا يحسبن أحد أن «فكرة الملك» عارضة في ذهنه  
كما يعرض الخاطر في خلد الشاعر، فان «للمجد الدينوى»  
لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره وثره،  
ولا تزال غالبية عليه في جمحات الأهواء وفتلات اللسان.



فسرعان ما يثب إليها كلما عرضت لها لمحمة ظهور ، وله  
في ذلك أبيات تعد بالعشرات منها :

لا ملك لي وأرى الدنيا تحاصرني

وما حججت وقد لاقيت احصارا

ومنها :

ماسرني بقناعة أوتيتها

في العيش ملكا غالبٍ وذمار

ومنها :

لو شاء ربي لصاغني ملكاً

أو ملكا ... ليس يعجز القدر !

ومنها :

وزهدني في هضبة المجد خبرتي

بأن قرارات الرجال وهود

ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى  
انى خليفتها ولا محمودها

ومنها :

محمودنا الله والمسعود خائفه  
فعدّ عن ذكر محمود ومسعود  
ملكبان لو أننى خيّرت ملكهما  
وعود صلب ، أشار العقل بالعود

ومنها :

ماسرنى أنى إمام زمانه  
تلقى إلى من الأمور مقالدا

ومنها :

أسر إن كنت محموداً على ضعفى  
ولا أسر بأنى الملك محمود  
وقد أعجبه أن يراه راء فى الكرى يلبس تاجاً فقال :



رآني في السكري رجل كآني  
 من الذهب اتخذت غشاء راسي  
 قلنسوة خصصت بها نضارا  
 كهرمز أو كملك أولى خراس  
 فقلت معبراً : ذهب ذهابي  
 وتلك نباهة لي في اندراسي

ولعل الرائي هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام  
 ما أخفاه العقل الباطن من نوازع الكبرياء، أو لعله  
 صاحب خبيث قد استطلع طلعه وعرف شموخ طبعه  
 فرأى المنام حقاً أو لفقّه له ليغم رضاه  
 وكأنه لما فاتته التاج وسوس له « عقله الباطن » في  
 المنام فرأى تلك الرؤيا، وسوس له في اليقظة فقال في  
 المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :  
 والتاج تقوي الله لا مارصعوا  
 ليكون زيناً للأمير الفاتح

وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لا تبدر من رجل  
يمزح حين يقول : كن في الدنيا كثيراً أو قليلاً ، فاما  
مليكا أو راهباً .. ثم تدركه الأنفة أن يأكل من رزق غيره  
مع الرهبانية فيقول :

ويعجبني فعل الذين ترهبوا

سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

كلا . ذلك رجل قد تغلغت الأنفة في أعماق طبعه ،

فما هي عنده كلمة مجاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال

✓ تلك مراجع شتى لعادة السميت أو « أدب اللياقة »

في خلائق أبي العلاء ، ومرجع آخر نضيفه إليها ولا نحسبه

قليل الأثر في تكوين تلك العادة ، أنه كان ضعيف

البنية ضعيف الخواص الجسدية ... فلم تغلبه شهوات اللحم

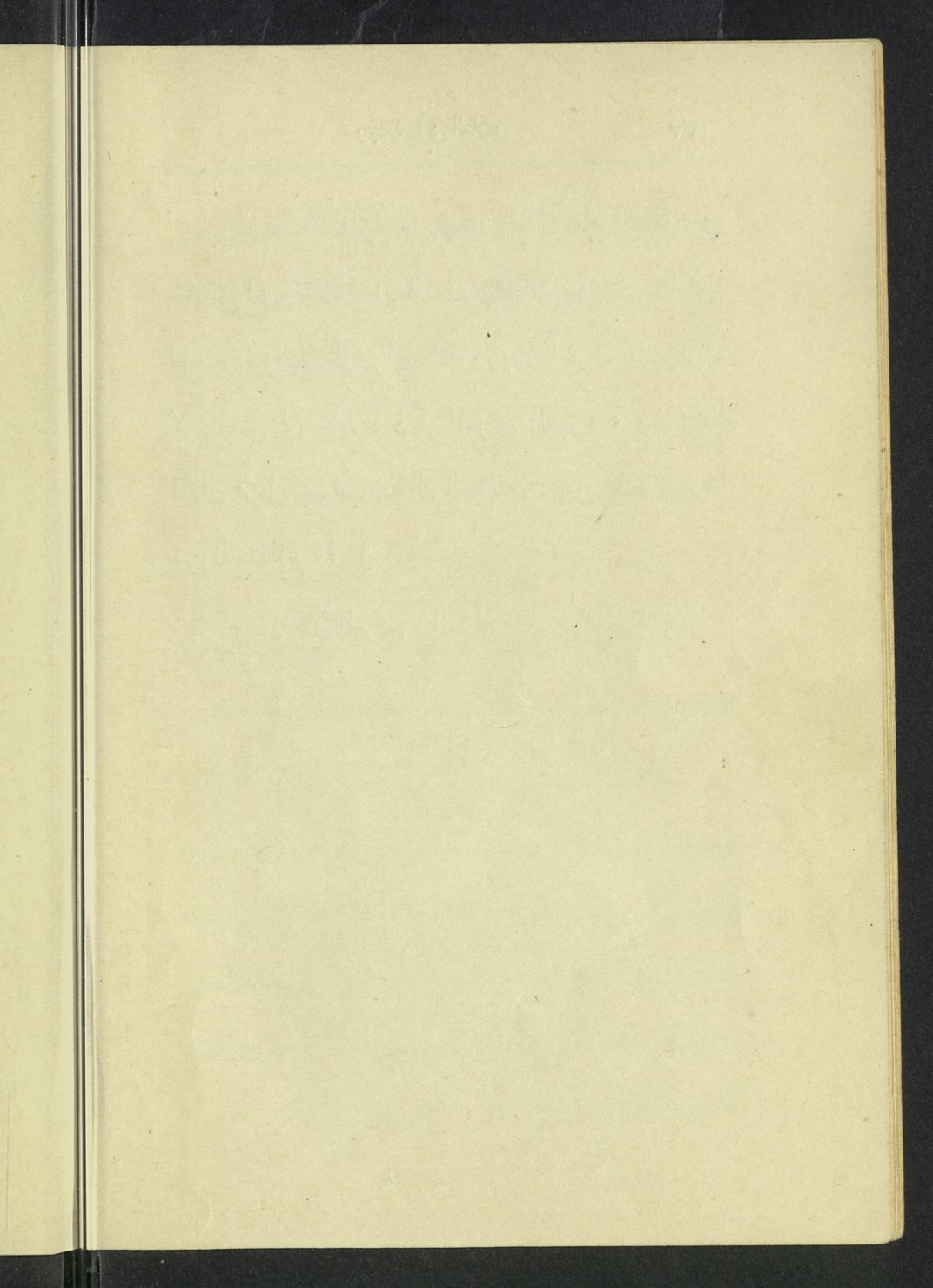
والدم ولم يعسر عليه ضبطها في عنان السميت مدى تلك

السنين الطوال



على هذه المراجع جميعها قام « أدب اللياقة » في  
خلائق أبي العلاء ، أو قامت تلك الشيمة التي قلنا إنها  
لو تغيرت قليلاً لخرج أبو العلاء رجلاً آخر ، من يقرأه  
لا يهجم في خاطره ذكر المعري المعهود ، وموعداً  
المقال التالي بجواب سؤال السائلين : هل كان تغييرها  
من المستطاع؟؟

وماذا كان المعري صانعاً لو قدر على تغييرها؟؟





عالم السّريّه

✕ قلنا في ختام مقالنا السابق أن الخصلة التي لو تغيرت  
في أبي العلاء غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه في  
الحياة كانه هي خصلة الوقار وكرهه السخر والمهانة  
أو هي خصلة «اللياقة» كما نسميها في العصر الحديث

وقلنا ان هذه الخصلة مردودة فيه إلى مراجع  
كثيرة، وهي التربية في بيت العلم والوجاهة، والسليقة  
العربية، وفقد البصر، والكبرياء، وضعف البنية ضعفاً  
أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع  
الشهوات

وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة



وماذا كان المعري صانعا لو أنها تغيرت بعض التغيير  
أو كل التغيير ؟

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعا كما استطاع كل  
تغيير في عوارض الصفات

فان تلك المراجع التي أنشأت فيه حب الوقار ليس  
من شأنها أن تنزع بصاحبها إلى النسك والزهد في  
الحياة إلا إذا اجتمعت في وقت واحد . أما اذا افتردت  
ولو بعض الاقتراق فليس النسك لصاحبها بلزام ، وليس  
حتم عليه أن يأنف من نعيم الحياة

إذ ليس كل من تربى في بيت من بيوت العلم والدين  
والوجهة بصادفٍ عن اللذات والشهوات ، أو بما كف  
على الصوامع والدور التي يسميها المحابس ، والأمثلة فيما  
نراه وقيما نقرأه كثيرات

وليس كل عربي تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الحجر

ويستطيب المجون ، فان امرأ القيس وطرفة والأعشى  
عرب في الصميم من العروبة ، ومجونهم مع ذلك كمجون  
الشعراء من أبناء الأمم الأخرى في عهد الجاهلية  
وعهود الأديان

وليس كل ضرير عازفا عن مواقع الشبهات ، فان  
بشار أقد ولد ضريراً وانه لأسبق إلى الشبهات من المبصرين  
وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حظوظ  
الأتوياء والأشداء ، إذ ربما كان ضعف البنية سبباً إلى  
الانزاط في التماس تلك الحظوظ ، لأنه يضعف الارادة  
فلا تقوى على كبح سورات الطبع ووساوس الاغراء  
وكذلك ليس المتكبر مترفعاً أبداً عن الطرب  
والسرور ؛ لأنه إذا كان بصيراً لم يكن في طربه وسروره  
ما يجاب عليه السخر والمهانة ، أو يعرضه للتغامز والتقرير  
بل لعله يرضى كبريائه أحياناً من طريق غزوات الحب  
ومظاهر البذخ والثراء \*



أما إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أوهاقها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً إلا كما وفق بينها أبو العلاء ، أي باجتناب الدنيا والتزم العزلة والقناعة

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه ، فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدري في طفولته الباكرة ، ولم يكن ضربة لازب إذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن المحبسين . وماذا يبقى من معيشة أبي العلاء أو من فلسفته في المعيشة إذا لم يكن رهن المحبسين ؟

وأكبر الظن في هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية في نمط واحد ، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف إلى نمط النواسي ونمط الخيام في ديوان الآداب الشرقية ، ويكون لاريب نمطاً بديعاً

خليقاً بذلك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل  
 وفي المعرى جميع العناصر التي تُخرج منه ذلك  
 النمط البديع ، ونعني به النمط الذي يذكرك عمر الخيام  
 أو يذكرك الحسن بن هانيء قبل أن يذكرك أبا العلاء  
 الذي عهدناه ودرسناه \*

عنده الشك في أخلاق الناس وعقائدهم فهو

القائل :

ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب

وهو القائل :

توهمت يامغرور إنك دينٌ

على عيين الله : مالك دين !

وهو القائل :

يحرم فيكم الصهباء صباحا

ويشربها على عمد مساء



وهو القائل :

وما يحجون من دين ولا نسك

وإنما ذاك أفرط من الأشر

وهو القائل وفيه كل سخره بخلائق الناس

وخلائق نفسه :

عرفتك فاعلم إن ذممت خلائقي

ورابك بعضي : أن كلك رائبي !

وعنده الرغبة في الحياة والشغف بمتاع الدنيا ،

وكلامه في ذلك كثير . منه قوله :

تناهيت العيش النفوس بغيره

فان كنت تستطيع النهاب فناهب

ومنه قوله :

والمرء ليس بزاهد في عادة

لكنه يتربح الا مكانا

ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :

ولم أعرض عن اللذات إلا

لأن خيارها عنى خنسنه

وعنده الشك في عقبي النفس وما يستتبعه ذلك

الشك من قلة المبالاة والمساواة بين المحامد والمثالب ،

ولعل أوجز كلامه في هذا المعنى قوله :

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى

فان كان حقا فالنجاسة كالطهر

أما الحر فلا استبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض

الأديرة التي كان يعيشها للدرس ومراجعة المذاهب ،

فان أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر في العلم بها على

السمع

بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين إلى حين في

بعض أيام العزلة كما ينم عليه قوله :



فلا تشربنها ما حبيت ، وان تم

إلى الغيِّ فاشربها بغير نديم

وإنك لتقرأ نبيه الكثير عن الخمر فتلمس فيه

نزاعاً شديداً إليها يغالبه ويعاوده في معظم أيامه كما

يؤخذ من قوله :

أَيَّاتِي نَبِيٌّ يَجْعَلُ الْخَمْرَ طَلْقَةً

فتحمل شيئاً من همومي وأحزاني

وهيئات لوحت لما كنت شارباً

مخففة في الحلم كفة ميزاني

أو من قوله :

لو كانت الخمر حلاً ما سمحت بها

لنفسى الدهر لا سراً ولا علناً

أو من قوله :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها

بالعقل أفضل أنصاري وأعواني

أو من قوله :

لو كان قدساً<sup>(١)</sup> ثم هبت ريحها  
بهضابه لم يبق فيه وقار  
لو يحمل الشرب الرواسى أو هموا  
ان ليس فوق ظهورهم أوقار

أو من قوله :

وما قصرت لى أم لىلى بشرىها  
حنادس أوقات على طيال

أو من قوله :

لا ينزلن بانطاكية ورع  
كم حلل الدين عقد للزناير  
بها مدام كذوب التبر تمزجه  
للشاربين وجوه كالدناير

---

(١) إسم جبل



أو من قوله :

لقد خدعتني «أم دفر»<sup>(١)</sup> وأصبحت

مؤيدة من أم ليلى بسطان

إذا أخذت قسطاً من العقل هذه

فتلك لها في ضلة المرء قسطان

أو من قوله :

لا أشرب الراح ولو ضُمَّتْ

ذهاب لوعاتي وأحزاني

مخففاً ميزان حلمي بها

كأنني ما خف ميزاني !

إلى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها في اللزوميات

خاصة ، وهي من بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته

الشخصية ، وهذا عدا ما جاء في رسالة الغفران من وصف

مجالس الشراب ولذات الشاربين في الدنيا والآخرة .

(١) كناية عن الدنيا

فان لم يكن في كل ما تقدم دلالة على ان الشيخ قد  
 ذاق الحفرة وعاد إلى مذاقها بعد لزوم المحسنيين ففيه دلالة  
 على اشتهاؤها ومغالبة نفسه عليها ، مغالبةً ليس بالهين  
 نسيانها وصرفها من ذهنه وهو اجس ضميره .

ويرجح الظن بنزوع المعري هذه النزعة بين  
 الخيامية والنواسية انه كان يعيش في عصر فتنة  
 واضطراب وجزع على الأنفس والاعراض ، وتلك  
 عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها  
 اغتنام الفرص والتهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى  
 الطريق بين حضارة الروم وحضارة العرب وحضارة  
 الفرس ، وكلها في ذلك العهد حضارات أخذت في الزوال  
 ولم تستبق من المناعة والتماسك ما يزرع النفوس ويعصم  
 الأخلاق ويحيي شرائع الآداب .

لكن لماذا نقول الخيامية والنواسية ونفرق بين



الطريقتين وكلا الرجلين — الخيام وأبو نواس — معاصر  
 كأس مقبل على متعة ، مستخف بالذم والثناء ؟  
 نقول ذلك لأنهما على اتفاقهما في العمل مختلفان في  
 أسبابه ودواعيه وغاياته .

فالخيام يشرب وينعم لأنه عالج مشكلات الوجود  
 فاستعصى عليه حايها ففقع بالساعة التي هو فيها وعمد إلى  
 الكأس يفرق فيها شكوكه وأسفه على بطلان الحياة  
 وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات ،  
 وإنما هو شارب خمر لأنه يشتهيها ويتصدى لعقاب  
 الآخرة في سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة مفروغ منها  
 وليست قضية في طريق الحل والجلء ، كما كانت في  
 مذهب عمر الخيام .

أما أبو العلاء فهو قريب من أبي نواس في الثقافة

العربية وقريب من الخيام في التفكير والبحث عن  
أصول الأشياء ، فهو لا يكون كهذا ولا كذلك حين  
يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطاً وحده يأخذ  
من كليهما بما هو قريب إليه ، وقد يترجم هذا النمط  
بعض الترجمة قوله :

السيف والرمح قد أودى زمانهما

فهل لكفك في عود ومضراب ؟ x

إلا اننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتماً

لزوماً على المعرى إذا هو سلم من الجدرى وعاش بصيراً

بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة التي تشككه وتدفع

به إلى البحث في أصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز

أن استغراقه في الدراسة إنما كان نتيجة لفقد بصره

وانصرافه عن الدراسات الأخرى التي يشتغل بها طلاب

المناصب والمساعي الدنيوية ؟ ألم يكن من الجائز أن



يدرس — وهو طفل بصير — تلك الدروس التي ترشحه  
 للقضاء كما رشحت بعض أهله من قبله ؟ ألم يكن من  
 الجائز إذا علمه أهله ليرشحوه لوظيفة القضاء أن يكتب  
 بدروسه الفقهية ولا يسترسل في دروس الحكمة والفلسفه  
 وشكوك الأديان ؟

كل ذلك مما يجوز ، وقد ذكر هو المراتب والتطلع  
 إليها في مواضع من شعره ، وذكر الفتيا فقال :

قلدتني الفتيا فتوجني غداً

تاجا باعفائي من التقليد

وقال يخاطب أبناء بلده :

يا قوم لو كنت أميراً لكم

ذمتم في الغيب ذاك الأمير

فاذا قنع الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعي

الديوية فربما ولي القضاء وعاش عيشة القضاة في زمانه

فلا يطيل الدرس ولا يتشعب في مناحيه بعيداً من فقه  
الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، وإذا تمادى به البحث  
مرة ودعاه إلى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما  
هى إلا خطرة عارضة ، لا تلبث أن تذهب كما جاءت  
أو تنطوى فى خبايا النفس مزوية عن الأسماع والأبصار  
لقد كان إذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش  
بعد موته فى ظلام التاريخ .

لقد كان يعيش إذن جاهلاً حقيقة نفسه ويموت  
مجهولاً بين عارفيه منذ قضى نحبه إلى أن يشاء الله  
وسنسأل أبا العلاء فى المقال التالى أى الحظوظ  
يختار .



أبو القلاء هو أبو القلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأيا فيما اختار من تلك  
الشخوص ؟

قال أبو العلاء :

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من اختياره

قال الرسول :

أفأذن مولاي أن أسأله عما اختار منها ؟

قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختار له من تلك

الشخوص ، فلعله يهتدى منك بهدى فيما يؤثره لنفسه



من شكول حياته وأحوال وجوده  
قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفثلى يهدى أبا العلاء ؟  
وفيم أهديه تعاليت ربى وتباركت ؟ فيما يأخذ من شأنه  
وفما يدع ، وفما يؤثر لنفسه وفما يابى !! ماذا أسمع  
منك مولاي ! وهل بلغ من قدرى أن أصبح هدفا  
لسخرك إن كنت ساخرأ ، وغرضا لتهكم منك إن  
طاب لك أن ترجع إلى تهكمك القديم ؟

قال أبو العلاء :

ولا كل هذا يابنى . . . . ما أنا بساخر منك ولا  
متهم ، وإنما يعجز الانسان غاية العجز حين يختار  
لنفسه ، ويقدر غاية القدرة حين يختار لغيره ، وليس  
صاحب الحكمة بدعا فى هذه السنة التى شملت أبناء آدم  
وحواء ، بل لعل الخيرة أعظم والتردد أزم حين يختار

الحكيم وينظر في مختلف الشؤون قياساً على كثرة ما يرى  
وكثرة ما يستوعب من المزايا والنقائص ، وكثرة  
ما يعلم للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم  
تكون أهلاً للسؤال الذى سألتك وأنا أحوج إلى  
جوابه منك إلى جوابي ، فإنا أنظر إلى شخصي كما  
ينظر الأب إلى أبنائه فلا أدري من منهم الأثير الراجح  
ومن منهم المزوى المرجوح . وأنا بعد صاحب الاختيار  
ومن يقع عليه الاختيار ، وأنا بعد الشاهد والمشهود  
عليه ، فإياك تستغرب منى أن آنس إلى خاطر يخطر  
لك أو ظن يحوم فى خلدك ... قل يا بنى ولا حرج  
عليك من حكمة حكيمك العظيم كما تدعوه . ما أنت  
بجاهل وما أنا بعليم .

وما العلماء والجهال إلا

قريب حين تنظر من قريب



قال الرسول وهو مأخوذ:

ذلك علم أستفيده منك إذ أنت تنكر العلم يامولاي  
على نفسك ، وقصاراي أن أسألك عن شخص شخص  
من شخوصك التي تعرض عليك ، وأن تقول لي ما حمده  
منها وما ليس عندك بحميد ، وأنا الرابع بما أسمع ، وإن  
لم يبلغ من رأي أن يضاهي رأي الشيخ فيما يريد  
وما ياباه .

قال أبو العلاء:

قل على بركة الله

قال الرسول :

ذلك قاضي قضاة المعرة أول تلك الشخوص ، أتمله  
سيداً جليلاً ينظر إلى الدنيا وتنظر الدنيا إليه ، وينعم  
بنصيب من الحياة يعلن منه ما يعلن ويبتطن منه ما يبتطن ،  
ويسأله الناس في العلم والدين ، ويقصده القاصدون فيما

يشكل عليهم من قضايا الفكر ، وقضايا المصالح  
والحاجات ...

ومضى الرسول يطنب في ما أثر قاضي القضاة وهو  
ينظر إلى وجه أبي العلاء ، فيراه يتسم ويصنع في غير  
قليل من الرحمة والحدب ، وغير قليل من العجب  
والاستجبال ، ويتأني الرسول في كلامه ويكفكف  
بعض الشيء من أطنابه وغلوائه ، فيعمد الشيخ إلى  
الكلام كمن لا ينشط اليه ، ويقول للرسول سائلا :

في أقاليم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال  
البشر الأحياء في هذا الزمان ، أقتراى لو عدمت الحياة  
أحسب نفسى حياً لأنهم أحياء ، وأزعم انى أعيش  
لأنهم يعيشون ؟

قال الرسول :

كلا يامولاي ، فان لهم حياتهم وللشيخ حياته ،



ولهم أعمارهم المحدودة وللشيخ عمره المحدود

قال شيخ المعرفة :

فتح الله عليك . فما أنا وذلك القاضى الذى وصفت ؟

وما نصيبي من الحياة ان عاش هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟

هو رجل من أهل الصين ما سمعنا به فى الأولين !

× إنما أبو العلاء أبو العلاء حين يعنى فى اغوار ضميره

فيلمح هناك هو اجس قلبه وشكوك عقله ، ومادة علمه

واختباره وآثار نعمته وحرمانه ، وما حصل أو ضيع

من أحلامه وأشجانه ، وغاية ما ينتهى من ظنه أو يقينه ،

فما أنا وقاضى قضاتك يا بنى ؟ ذره وما اختاره يعيش كما

اختار له أمراؤه وطلاب عدله وانصافه ، فان الصلة بينى

وبينه كما قلت لك لك الصلة بينى وبين ألوف ممن عاشوا

أو يعيشون فى أرجاء الهند والصين ، فما اجتاز صاحبنا

١٦ من حقيقة أبي العلاء عتبة الدار، ولا صعد منها إلى ذروة  
ولا هبط إلى قرار.

قال الرسول :

فما قول شيخنا أفاده الله في الشاعر النّوّاسي يحيا  
حياته وينعم نعيمه ، ويرتع في لذات العيش كما رتع ،  
وينظم الشعر كما نظم ، ولا يحرم الشهرة بعد زمانه ،  
ولا الحظوة بين معاصريه وأقرانه

قال أبو العلاء متهانفاً مستكراها :

لو سرنى أن أعيش عيشه لسرنى أن أخلد خلوده  
وأن أشتهر اشتهاؤه في زمانه وبعد زمانه : ذاك نديم  
يا بنى وتلك غاية مُرتقاؤه ، فكيف ترانى أوثر مكان  
النديم ومن فوقه مكان من ينادمه ويرجو مسرته  
ويبتغى صلواته وعطاياه ؟

رحم الله ابن هانيء ، ما اقترب من الأفق إلا حين قال :



إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو في ثياب صديق

ثم أبى أن يمتحنها وامتحنها أنا في كل يوم ،  
وشرب من يدها الخمر لذة للشاربين وكرهت أنا أن  
أقبل الضيافة من عدو بغيض ، ولو لقيته لسألته : ما بالك  
لم تمتحنها يرحمك الله وتركتها محنة لك لا تألوك امتحانا  
في ليل ولا نهار ؟

خذه يا بنى إلى جانب قاضيك فما كان لى من أرب

في هذا ولا ذاك

فوجم الرسول التاميد هنيئة ، ثم قال وهو يقدم  
ويحجم : هل أسأل الشيخ عن الفارسي عمر الخيام ؟  
فهش أبو العلاء وقال نعم تسال ، فماذا تخانى  
محيباً إن سألت عنه ؟

قال التلميذ : أحسب أنى فطنت لاختيار أستاذنا

من تلك الشخوص التي عرضت عليه

إن أستاذنا ليختار الفيلسوف الفارسي وأنه ليرضى  
 عن بحثه وزهده ، وأنه ليقنع كما قنع برغيفه وقدهه  
 وحبيبه ، وإنه لينظر بعد ذلك في السماوات والأرضين  
 بعلم المنجم وخبرة الحكيم ، وإنه ليتبوأ من سيرة الخلف  
 بعد زمانه مكان الهداية والتعليم ، لا مكان السمير  
 والنديم !

فبدأ على وجه الحكيم الضرير قطوب يسير ،  
 ولكنه قطوب الروية والمراجعة لا قطوب الكدر  
 والانتقباض ، وهمس بين شفثيه كأنه في حديث نجوى :  
 أتراني أكون نسخة منقولة من أحد كائنات  
 ما كان ؟

ثم جهر قائلاً :

كلا يابني ! لقد كنت أختاره لو أنني خيرت فيه



قبل ميلادى وميلاده ، أما اليوم فالى فى هذا الشبه  
من أرب : رضى الله عنه فهو أقرب من آثرت وأصعب  
من أبيت

ثم عاد يقول :

لئن حظى بلذة التعاطى لما حظى بقوة الامتناع ...  
ولئن سكر بخمر الدعة لما سكر بخمر الأنفة ، ولئن  
جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب الاعراض  
عنها خطوات : له طريق ولى طريق ، وربما التقينا  
فى بعض الطريق !

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول القوم اليه :  
ما بالك يا بنى ترضى لى كل صورة إلا الصورة التى  
رضيتى من أجلها ؟

قال التلميذ : تعنى يا مولاي صورة أبى العلاء ؟

قال الشيخ : نعم . إياها أعنى ولا أعنى سواها

فعجب التلميذ عجباً لم يدر له منفذاً ولا منصرفاً :  
 أيقضى الشيخ حياته في التبرم والانكار ثم لا يختار  
 حين يختار إلا ما تبرم به وأغرق في انكاره ؟

هذا والله لهو العجب العاجب والحيرة جد الحيرة  
 في قضاء الناس مع الأقدار وقضاء الأقدار مع الناس  
 وكأنما أدرك الشيخ ما يهجس به ضمير التلميذ فقال  
 له : تراه عجبياً ؟ أليس كذلك ؟

قال التلميذ لا أكتمك عجبى فأنت به أعلم ، وما  
 أدرى كيف شكوت الدنيا ثم كيف تختار اليوم ما كنت  
 تشكوه ؟

قال : أضرب لك مثلاً ، فأنما بالأمثال تنجلي

المشكلات والمشابهات

هبك خررت إلى العالم العريض الرحيب فجعلت  
 لا ترى مزية ولا حسناً ولا فضيلة في أحد من الناس



إلا تمنيت ذلك لنفسك : هبك تمنيت من هذا عينيه  
ومن هذا أنفه ومن هذا لونه ومن هذا قوامه ومن  
هذا فكره ومن هذا عافيته ومن هذا أرزاقه وأمواله ،  
ومن هذا ماضيه ، ومن هذا حاضره ومستقبله ومن  
هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو  
ملكة التدبير

وهبك جمعت هذا كله في شخصك فأين تكون  
أنت بين جميع هذه الشخصوس ؟

لا تجب فاني مغنيك يابني عن الجواب : إنك  
يومئذ لا تكون

إنك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد  
وسطوة فلان ومال آخرين ، ولكنك أنت لن تكون  
وأنت أنت الذي يعينك أن تكون جميع هؤلاء ، وإذا

كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا هؤلاء كائنون

قال التلميذ : ألا يتسنى لي أن أحتفظ باساس

وجوهر ثم أتمنى النوافل والعروض ؟

قال الشيخ : ذلك خطأكم القديم . فإنا من عرض

إلا وهو داخل في صميم الجوهر ، وما من شرفة في أعلى

البناء إلا وللأساس منها عماد ، وإن بصرى الدى فقدته

لجزء من تكويني لا أنزعه إلا انتزعت كلتي معه فلم

يبقى لي ما أختار به ولا ما أختاره . ولقد يكون من

غوارض الحياة مال يذهب ومال يجيء ، ودار تسكنها

هنا ودار تسكنها هناك ، ولكنك إذا كسبت المال

وفيك طبع الفقير فكأنما وقع الدرهم في يمين غير

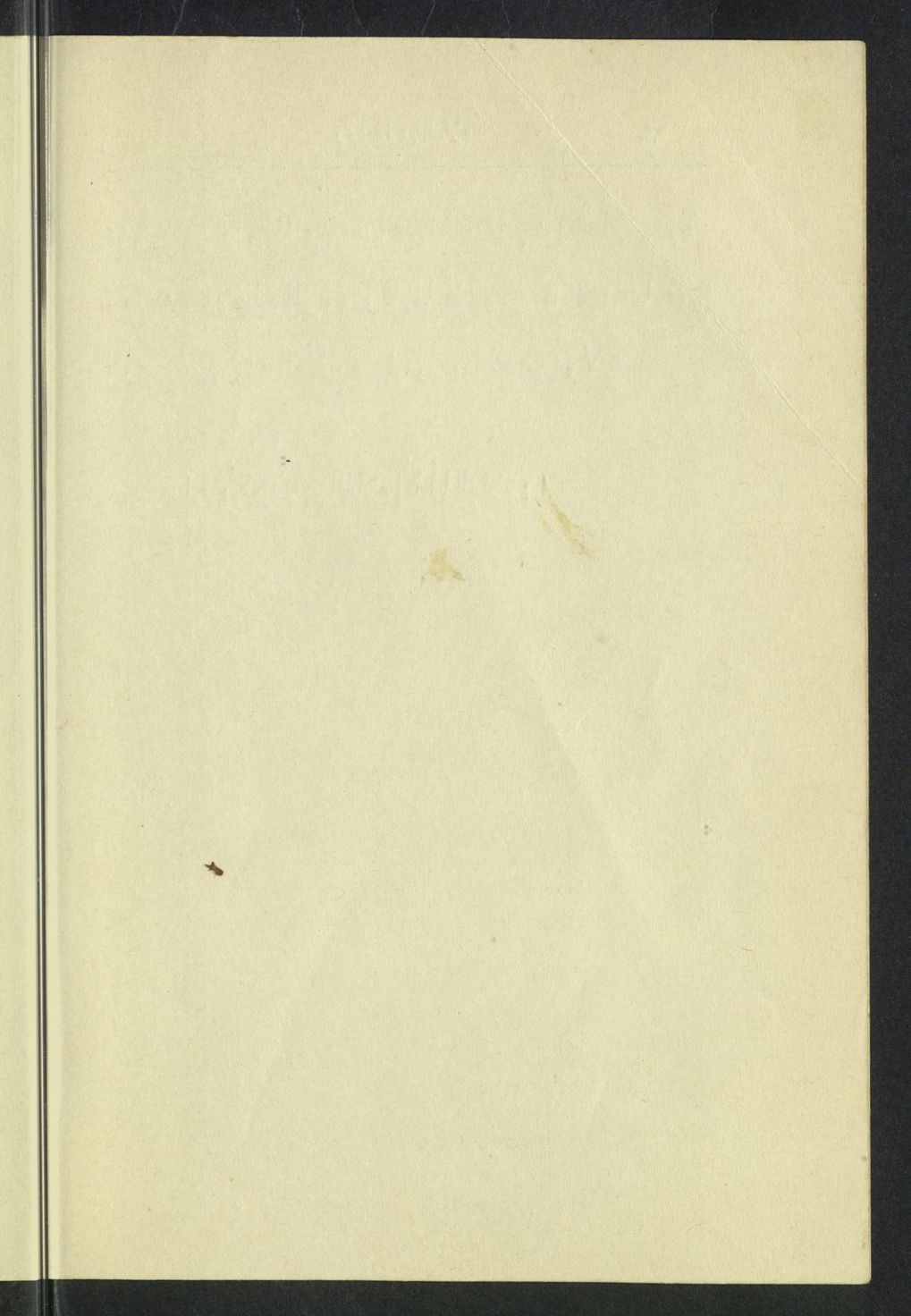
يمينك ، وإذا سكنت الدار وخلفت فيها ذكريات

شبابك فأنت ساكنها وإن تحولت منها إلى العدو



الأخرى ، وإذا وجدت مرة فلن توجد إلا على صورة  
واحدة في هذه المرة ، وكل ما تختاره بعد ذلك فأنما هو  
من وحي تلك الصورة ، ليس منه محيص ولا محيد  
كلا يا بني

لن يكون أبو العلاء إلا أبا العلاء ! !





بساط الرِّيح

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا . . .

قال الرسول : ان الفضول ذميم في كل شيء  
يامولاي إلا في طلب العلم والسؤال عنه . أفياذن لي  
أستاذنا في سؤال ؟

قال الشيخ : أحسبك تسألني عما استطعت وفعلت

قال الرسول : نعم . هو ذاك !

فصمت الشيخ قليلا كمن يستحضر نغما بعيداً  
أو كلاماً منسياً ثم أنشد :

وماء بلادى كان أنجع مشربا

ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال



فيا وطني ان فاتني بك سابق

من الدهر ، فلينعم لسا كنك البال

فان أستطع في الحشر آتاك زائراً

وهيات لي يوم القيامة أشغال

هذا الذي استطعناه وفعلناه : عودة إلى الوطن

وزيارة للمعرة في هذا الحشر الذي حشرتمونا إليه

فأخذت الرسول شيطنة التلاميذ في كل سن وفي

كل مقام ، وراح يقول لأبي العلاء : ومع هذا أنت

القائل :

فيا ليتني هامد لا أقوم

م . إذا نهضوا ينفضون الهمم

فأدار الشيخ رأسه ناحية وزم شفقيه قليلاً ثم

أجابته : نعم ! ليتني هامد لا أقوم . أما وقد قتت فأى

مكان أحق بالحنين من

بلاد بها نيطت على تمانئ  
وأول أرض مس جلدى تراها

بل أصبح جسمي من تراها ، واختلط فوق صعيدها  
وبين أحشائها... هذه هي المعرة ! نعم هذه هي المعرة  
عرفتها وما كدت أعرف غيرها . فالحمد لله على  
البعث فيها

فهجم التلميذ بسؤال جديد ، وعود على الاكثار  
من السؤال ، إذ لا محيص من مساءلة الشيخ وإن ضجر  
بعض الأحيان... فربما كان ضجر الاجابة خيراً من  
ضجر السكوت سنوات ، ريثما يعقد الاحتفال ويجتمع  
المقبولون إلى المعرة لتحية حكيمها في ذكره

قال التلميذ في سؤاله الجديد : أليس من عجب هذا  
الحب للمعرة ممن عاف الدنيا بأسرها ؟

فأجاب الشيخ في غير ضجر ولا تأفف ، كأنه كان



يتوقع سؤالاً كهذا من تلميذه : « ما أكثر عجب الناس  
 مما لا عجب فيه ! إنما يحب الوطن الصغير من يعاف  
 الوطن الكبير ، ومن كره الدنيا كره التقلب فيها  
 وكره السعى وراءها في نواحيها . فإلى أي منقلب يصير  
 غير المكان الذي لا عناء فيه يتجشمه ، ولا جديد فيه  
 يفجأه بما يسوءه ، ولا يزال فيه قريباً من عهد صباه ،  
 قبل أن يذوق مرارة العيش ويمتحن بيلواه ؟ وما أخرى  
 من اتخذ في المعرفة محبساً لا يفارقه أن يتخذ في الدنيا  
 بأسرها محبساً هو هذه القرية ١١ لو فعل غير ذلك لعجبتم  
 منه ، فاعجبوا واخلقوا العجائب فلعلكم تستروحون  
 الحياة ببعض ما تعجبون له ، ولعلكم أطفال القدر  
 يضحك منكم حين تسألون ثم يضحك منكم حين  
 تقنعون بالجواب ، أو تحسبون أنكم في غنى عن  
 السؤال . . . يا بني سل ما بدالك . فقد سألت الغيب

كثيراً وسألني الناس كثيراً ، وعالجت السؤال في الدنيا  
والآخرة ، فلا أدري ماذا أصنع إن لم أكن سائلاً أو  
مجيئاً لسائل ، وما أخالك ساكتاً لو دعوتك إلى  
السكوت ، فتكلم ما ذوناً فأنتم أزهدي الخلق في مباح  
وأرغبهم في ممنوع ، وقد يريحني الإذن لك أضعاف  
ما يريحني الأعراض عنك ، فلو صدقني من قبلك حين  
قلت لهم إنني أجهل ما يجهلون لطمعت في تصديقك  
إياي حين ألوذ بالصمت أو اقر بالغباء ...

واضطرب الرسول لا يدري أهذا ترخيص في  
السؤال أم نهى عنه ، وانقباض من الشيخ أم تبسط  
وانطلاق . وانه كذلك إذ عاد الشيخ يتكلم كأنما قد  
سرت في نفسه حرارة الثورة على الناس ، وإنها حرارة  
ترضى صاحبها عن يثيرها ساعة تسخطه عليه ، كما يعدو  
الجواد فزعا فيشعر بنشاط العدو وجفلة الفرع في آن ؛



وأبو العلاء ثائر يرضيه الاعراب عن ثورة نفسه ولا يرضيه طول الكتمان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تنبئني يا بنى : ماذا تظنون حين تسألون رجلا متهما بالعلم فيعجز عن الجواب أو يابأه ؟ أتحسبون الغيب سلطانا يجتبي بأسراره الحاشية المقرين ؟ أتحسبون من يصحبه مطالعا لا محالة على كل أمره فلا يخفى شيئا إلا اهتمموه بالضم أو الدهاء والروغان ؟ إن كان هذا ما تحسبون يا بنى فالغيب ليس بسultan ، والعماء ليسوا بحاشية سلطان ، وأحرى أن يكون العالم كالمديح في الظلام يحمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى ما هناك ولكنه لن يرى ما ليس هناك . . . فان سألتهم فاسألوا عما يجوز عامه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المديح وحيث يقع عليه شعاع المصباح . أما ما وراء ذلك فالعماء والجهلاء فيه كما قلت لكم اقرب من قريب »

فتنفس التاميد الصعداء وعلم أنها غضبة ليست  
من غضبات الجفاء والنقمة ، وقال وهو يتلعم : لقد  
علمت ما لم أسأل عنه ، فما أسعدني بقربك أيها الحكيم  
سائلا وغير سائل ، وسترى أيها الحكيم أنني لن  
أسألك إلا عما هو في علمك ولن أطلب منك إلا ما هو  
عندك . فهل أحسب الشيخ آذنا في هذه الساعة بسؤال  
أو أفضيه حتى يأذن ويستريح إلى الجواب ؟

فتبسم أبو العلاء وقد راجع نفسه واسترجع حمله  
وأثاته ، والتفت إلى تلميذه ملاطفاً وهو يقول له : ان  
كنت قد تعودت منى مارأيت وفهمت أنني لا أغضب  
منك ولا عليك فنحن على وفاق . . . ولك إذن أن تسأل  
ولي أن أجيبك أو أغضب كما غضبت منذ هنيهة ، ولا  
حرج علينا معا في هذا ولا في ذلك

قال التلميذ : جزاك الله خيراً يا مولاي في غضبك



ورضاك ، فما قول الأستاذ في اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ما قوله في رحلة بين آفاق الأرض ثم نعود إلى قريته العزيزة في موعد الوفود ؟

فاعتدل أبو العلاء في مجلسه وهو يقول : أوتدعوني إلى الرحلة وما فرغنا بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ إنك لا تضيع فرصتك يا بني ، وإنك لسريع الهجوم .

فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : ان يومك يا مولاي غير أمسك ، وإن المعرفة اليوم لعلى مسافة ساعات من بغداد ، وإن الأرض كلها لتطوى الآن في أيام معدودات . فلو لم يكن في السفر إلا تجربة هذه العجيبة المستحدثة في زماننا لكان ذلك شفيعى في اقتراحه وشفيع الشيخ حفظه الله في قبوله

فطال انصات الشيخ كالمستريب المتوجس ، وخطر له

ان الفتى يغربه ولا يصدقه المقال ، ثم سأل في صوت خفيض :

ماذا تقول؟ المعرة على مسيرة ساعات من بغداد!  
والأرض كلها تطوى في أيام معدودات؟! هل عادت  
المعجزات وهل رجع بساط الريح؟ هل أصدقك والعقل  
أولى بتصديق؟

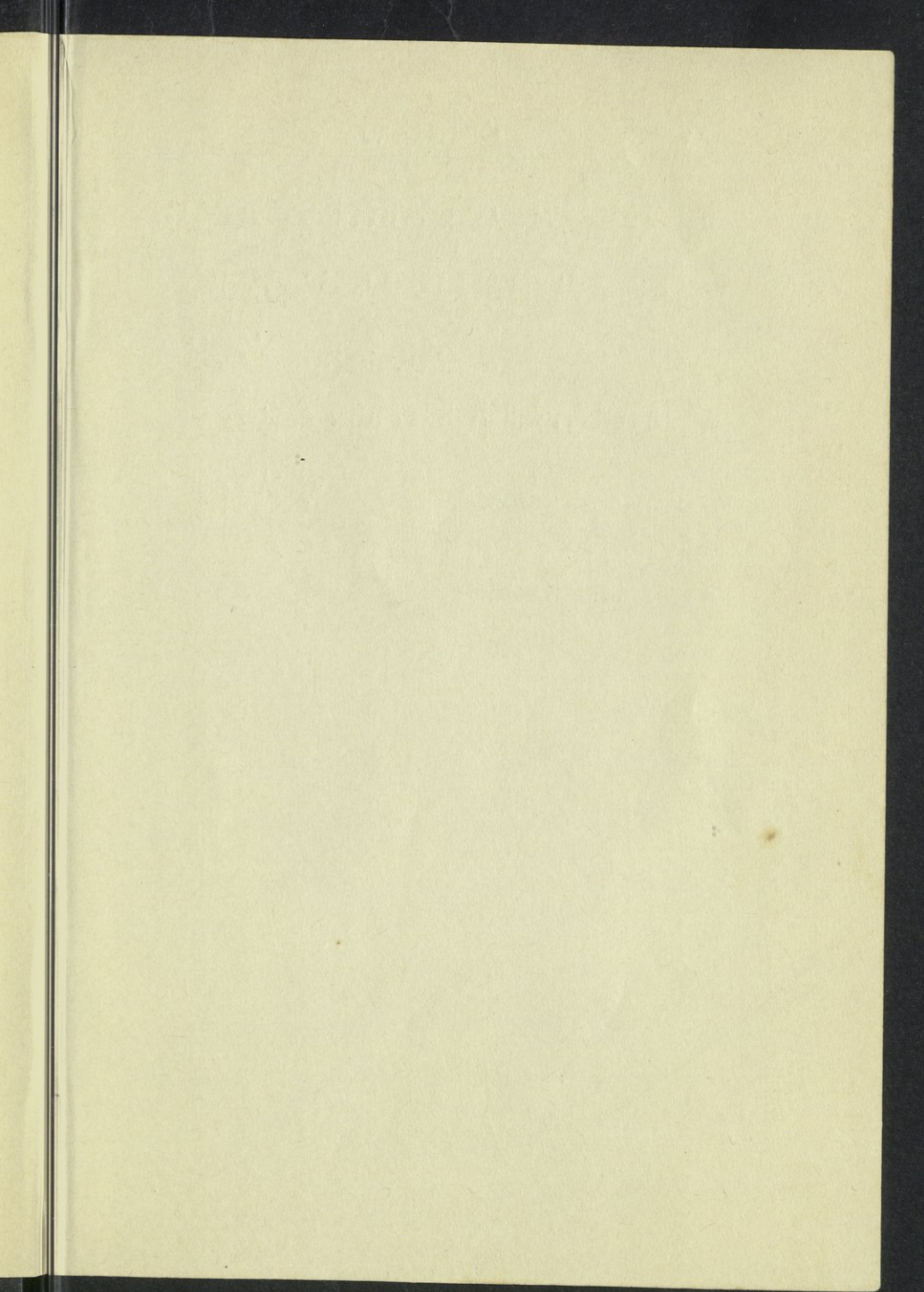
قال التلميذ: ما على الشيخ إلا أن يقبل الساعة  
وسيصدقني ويصدق العقل معاً بعد ساعات

قال الشيخ: قبلت ، فأين بساط الريح؟ وأين سليمان  
ابن داود؟

ثم مضى التلميذ يشرح للشيخ ما يريد ، والشيخ  
مقبل عليه ظاهر العجب من كلامه ، حتى فرغ من  
شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع الأرض في مشرقها  
ومغربها وأن يشهدا الأجيال التي لم يشهدا أبو العلاء



ولم يسمع بخبرها ، وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنده  
من علم ، ويتخذ دليلا له فيما تجهل ، فلا حرج من  
سؤال ولا حرج من جواب  
وسنسمع ، بعد ، ما قال أبو العلاء وما قيل له في كل  
مكان وصلا اليه





حِكْمُ السِّيفِ  
٢

ألم أقل لك يا بني أنني لا أملك أن أرى رأيا جديدا  
ولا أن أحيا حياة جديدة ؟

قصارى ما يملك المرء في هذه الدنيا عمر واحد يعلم  
فيه كل ما قدر له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من  
العمل ؟ ويختبر فيه اختباره ، ويستوفى منه أحواله  
وأطواره . فإذا قضاة فتلك حصته من الزمن لا حصه له  
بعدها ، ولا نصيب له من أعمار الدنيا ورائها

قال الرسول : والشهرة يا أستاذنا ، أليست هي  
عمرام تتجددا وحصه مزداة ؟

قال أبو العلاء : كلا يا بني الشهرة استطالة لعمر



الشهير: فيها تكرار له وليس فيها تجديد لشيء منه...  
 ختمت حصتي من الوقت فلا تنتظر مني قولاً غير ما  
 قلتُ، أو رأياً غير ما رأيتُ، ولو اطلعتني كل يوم من  
 دنياك هذه على جديد

فأحس الرسول شيئاً من خيبة الرجاء... أو لا يسمع  
 من أبي العلاء كلمة فيها معنى من المعاني غير ما سطرته  
 الأوراق و فرغ منه الحافظون والشراح؟ لقد كان  
 يحسب أنه ظافر بأبي علاء جديد، أو بطبعة منقحة من أبي  
 العلاء القديم، فإذا به يسمع مرة بعد مرة أن أبا العلاء هو  
 أبو العلاء؛ وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ  
 من ورائه إلى علم غير ذلك العلم، ولا إلى حكمة غير تلك  
 الحكمة. وأوشك أن يقتضب الرحلة لولا أنه استدرك  
 وتدبر، فعلم أن مشاهدة الدنيا في صورة علائقة أمر  
 يستحق النظر ومعرفة تستحق العرفان. فانطلق يقول:

إذن يا مولاي أنا أعلم رأيك في هذه الحكومات  
العسكرية التي تركنا بلادها ، أو هذه الأمم التي يجرون  
على وتيرة لا يشذون عنها ونظام لا يهاودون فيه ، أنت  
تحمدتها بعض الحمد لأنك تقول :

واخش الملوك وَيَاسِرُهَا بِطَاعَتِهَا

فالملك للأرض مثل الماطر السانى<sup>(١)</sup>

إن يظلموا فلهم نفع يعاش به

وكم حموك برجل أو بفرسان

وهل خلت قبل من جور ومظلمة

أرباب فارس أو أرباب غسان

وهذه الحكومات المجندة تحمى من الفوضى ولها

نفع يعاش به في أزمان القلاقل ، وهى تزعم الأحرية

للناس فى قديم من الزمن أو حديث ، ففى كل حكومة

(١) سنا السحاب الارض سقاها



جور ومظامة . والحكم هكذا يكون ، أو لا فهو فتنة  
وظلم مكنون

فأصغى أبو العلاء طوبلا . ثم قال : ولكني كما  
قلت هذا قلت كذلك :

ومن شر البرية رب مُملك

يريد رعيةً أن يسجدوا له !

وهؤلاء الخاكمون يقولون انهم معصومون وانهم  
لا يحاسبون ، وانهم ارباب يدان لها بطاعة الساجدين  
الراكعين . فما أحق هذا وما أحرأه ألا يكون بين  
أناس يعقلون :

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاي ، لولا أن الرعية تحب  
هؤلاء الخاكمين ولا تطيعهم إلا وهي راضية بما تطيع  
فلم يزد أبو العلاء على أن أعاد بيته القديم :

تلوا باطلا وجلوا صارما

وقالوا صدقنا . فقلنا نعم

ثم سكت وأطال السكوت

فعاد تلميذه يحاوره وكأنه زو هوى فى تعظيم

مذاهب الحكم عند هؤلاء العسكريين ، وقال فيما قال :

إن هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم ،

ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون إيمان الحاكمين

ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمتهم

كأنها عظمة لهم فيها نصيب ، وكأنهم شركاء فى السيادة

حين يخضعون لأولئك السادة

قال أبو العلاء :

وما أعجبتنى لابن آدم شيمة

على كل حال من مسود وسائد

ذلك أدهى وأمر ، وليتهم فكروا وخالفوا



وخضعوا مرغمين ، فذلك أكرم لعقل الانسان وأدنى  
إلى الرجاء فى الخلاص ، أما أن يسلب الانسان الفكر  
حتى لا يفكر إلا بأمر حاكميه وعلى وفاق الهوى من  
رؤسائه ، فذاك آلة من الآلات وحيوان من العجاوات  
وليس بأدى له عقل ، والعقل امام للآدميين أولى  
بالاتباع من كل امام

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول  
وحسم الجدل ، وقال مالا رجعة فيه ولا مزيد عليه

إلا ان التاميد قد طاب له أن يسترسل فى النقاش  
والسؤال فإثنى يقول : أو لا تُعترف الطاعة من الرعية  
حتى لو أفلح الرعاة فى سياسة الأمور وشاهد الناس  
فلاحهم آنة بعد أخرى ، فعلموا انهم راشدون وانهم  
لا يخطئون ، وان خطأهم آمن فى عقباه من خطأ  
الكثيرين ؟

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل

وينفذ أمرهم فيقال ساسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ انك أنت قائل هذا

يا مولاي !

قال أبو العلاء : ذلك فخوى كل جواب على كل

سؤال من قبيل ما سألت ... فلا تنظر يا بني إلى فلاح

هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم ويستقر سلطانهم وتمضى

مشيئتهم . بل انظر اليهم حين يفشلون وحين يريدون

فلا يقدرن . . . انظر اليهم يومئذ تعلم انهم يخطئون كما

يخطيء سائر الناس وأكثر مما يخطيء سائر الناس ،

بل تعلم ان الناس يرون لهم من الخطأ يومئذ أكثر مما

صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أو استطاعوه . ولا تنس

أبدأ قول الحكيم القديم



والناس من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهي ولأم المخطيء الهبل

واذكر يا بني أن هؤلاء الجيوش المجندين يتعلمون

الجن حين يتعلمون ما تحسبه شجاعة ... وان أشجعهم

لن يجرؤ على كلمة يغضب بها سيده وصاحب أمره ...

وما بقي بعد ذلك من اقدام على القتال أو الشجار ،

فهو اقدام اضطرار ، أو اقدام مخمور بحميا الضجيج

والفخار .

X وما أبرئ نفسي يا بني . لقد عرفت هذا الجن

وقلت فيه :

لجأت إلى السكوت من التلاحي

كما لجأ الجبان إلى الفرار

ويجمع منى الشفتين صمتي

وأبخل في المحافل باقتراي X

هوؤلاء كلهم يابني فارون من المنطق والكلام ،  
 جنباء يهربون من الميدان إلى السميت الذي تدعوه طاعة  
 أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة والشجاعة  
 إلا كالرجل وصورته في المرآة

قال التلميذ : واجمال ذلك كله في كلمة واحدة يا مولاي  
 قال أبو العلاء : اجمال ذلك كله يا بني في بيت

واحد ، وهو

ساس الأنام شياطين مسلطة

في كل أرض من الوالين شيطان

وانفض بذلك الجدال بين الشيخ وتلميذه ، وهما

قافلان من بلاد الحما كمين العسكريين .



# المستشرقون

هوؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاي ، هم من  
سميناهم نحن بالمستشرقين ، وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ  
لأنهم نشأوا أول نشأتهم في عصره ، فكان أقدمهم يتعلم  
العربية والحكمة على عرب المغرب يوم كان الأستاذ  
يعلی دروسه القيمة في المعرة قبل عشرة قرون ، وكانوا  
قسيسين ورهبانا يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار  
القرآن ويستعدوا لها بالحجة والبرهان ، ثم شاع أمرهم  
حيث شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على الاناجيل  
بين جبرها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه ، فمن ثم  
كثرت طوائفهم في بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر  
ما يكونون بين هوؤلاء القوم ، ولا سيما وهم قوم مشغوفون



باللغات والبحث في الأصول واللهجات . فهذه علة  
 ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث  
 نحن الآن مقيمون ، وأنهم من أجل هذا يحومون حول  
 هذا الورد ويغتمون هذه السانحة ، ولا يريدون أن يعبر  
 بهم حكيم المعرة دون أن يوسعوه حفاوة وسؤالاً  
 ويتخذوا من كلامه بيانا يعتصمون به ودعاية يدعون  
 إليها . فان شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصى خبرهم فله  
 الرأي الأعلى فيما يشاء . . . . .»

ذلك كان حديث التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست  
 بالقصيرة قضياها في بلاد الجرمان ، ولقيا فيها فئات من  
 المستشرقين سمعوا برهن المحبسين فزاروه واستزاروه ،  
 وسألوه وأجابوه ، وعجب أبو العلاء من شأنهم في بلاد  
 الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على  
 سبيل القصاص ، لكثرة ما أطال عليه من سؤال ،

وكثرة ما التمس عنده من فائدة ، وكثرة ما كلفه  
من تجوال

فلما أنبأه التلميذ نبأهم قال أبو العلاء :

استعجم العرب في المواصي

بعدك واستعرب النبيط

ثم قال :

أين امرؤ القيس والعداري

إذ مال من تحتته الغبيط

وجعل يردد : أين ؟ أين ؟

ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباها بين رهبان زماننا ،  
يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهبانا في كل  
ما يدرسون . فهم يحجون إلى العلم من طريق الدين ،  
وقلما يعرفون العربية إلا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة ،



وأقربهم إلى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له في لغة قومه قدم ، وهم جامعون ومحيطون ، دأبهم كدأب كل محيط يقف عند الاطراف ولا ينفذ منها إلى القلب ، ولهم على ذلك ما استحقوا من جزاء ، وثناء

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألني أو تأمرني أن ألقاهم الساعة ؟

قال التاميد : أستغفر الله يامولاي ، فالأمر والرأي لك ، وإنما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت وما ترضاه من قبول أو اباء :

هؤلاء الصحفيون يسألون وقد عرفت طريقهم في السؤال ، فإن أذنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون ، فلا نجاة منهم قبل أن نرحل من هذه الديار

فاستسلم أبو العلاء وأوماً قائلاً . على بهم مجتمعين<sup>1</sup>

فما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب وكان يتلو خطاباً  
قد استظهره وتصنع لالقاءه، وجاء منه بعد كلام طويل :

«إننا نستقبل منك في بلاد الجرمان رجلاً من أهل  
الشمال وإن كان مولده في الجنوب ، وعقلاً من عقول  
الآريين وإن كان منسوباً إلى الساميين، وشاهداً جديداً  
على صدق علم الأجناس الذي كشف لنا حقيقة النبوغ  
ودخيلة المزايا والأخلاق بين الشعوب ، فلا فضل ولا  
عبقرية ولا ارتقاء في الآداب والفنون، ولا في العقائد  
والأخلاق إلا أن يكون مردها جميعاً إلى أبناء الشمال ،  
وإن خفيت مصادر النسب واختلفت مواقع الميلاد

«ولو لم تكن أيها الرجل العظيم من سلالة الآريين  
لما اتصل الروح بينك وبين الهند فرأيت مارآه  
البوذيون وحرمت ما يحرمون، واجت ما يبيحون، فأنت  
الناهي عن أكل الحيوان وجناه حيث تقول :



تق الله حتى في جنى النحل شرته  
 فما جمعت إلا لأنفسها النحل  
 وأنت الناصح باحراق الموتى وإن عجبت منه  
 حيث تقول :

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم  
 وذاك أرواح من طول التباريح  
 إن حرقوه فما يخشون من ضبع  
 تسرى إليه ولا خفي<sup>(١)</sup> وتطريح  
 والنار أطيب من كافور ميتنا  
 غبا وأذهب للنكراء والريح  
 وأنت المنكر كل ما ذهب إليه البشر إلا مذهب  
 الهند حيث تقول :

عجبت لكسرى وأشياعه  
 وغسل الوجوه بيول البقر

(١) خفي الشيء أظهره وهو هنا يعني النباش

وقول النصارى اله يضا

م وَيظلم حياً ولا ينتصر

وقول اليهود إله يجب

رشاش الدماء وريح القتر<sup>(١)</sup>

وقوم أتوا من أقاصى البلا

د لرمى الجمار وشم الحجر

فوا عجباً من مقالاتهم

أيعني عن الحق كل البشر؟!

ولاح على الرجل أنه منطلق في تحيته إلى غير نهاية

فلم يمهل أبو العلاء حتى يأتي على شواهد وأمثاله

ويستطرد إلى نتائج وغاياته. ومال إلى تلميذه ورسوله

يقول وكأنه يسارّه: أين يذهب عن هذا الثرثرة قولى

« وغسل الوجوه بيول البقر » ؟ أليس لأهل الهند فيه

نصيب؟ ثم قاطع الصحفى الخطيب سائلاً:

(١) رائحة العظم المحروق



ماذا تعنى بساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟

فأسرع التلميذ يجيبه قبل إجابة الصحفي : «: أنهم يامولاي يعتقدون اليوم في بلاد الجرمان أن البشر جنسان : جنس مخلوق للسيادة والحكم ، وجنس مخلوق للطاعة والتسخير ، وإن أهل السيادة منبتهم في الشمال ثم انحدروا منه إلى الهند ، فهم المعروفون بالهنديين الآريين ، وأن أهل الطاعة والتسخير منبتهم في الجنوب فهم الساميون أبناء سام أو الحاميون أبناء حام ، ومن شاكلهم في السحنة والسواد ، وأنه مامن نابغ عظيم إلا وهو مردود إلى أهل الشمال في معدنه وعنصره القريب ، وإن ظهر بين أبناء الجنوب . ولعل شبهتهم في انتمائك إلى الشماليين يامولاي : إنك مولود على مدرجة الصقالبة والروم . . . . . »

فانتفض أبو العلاء انتفاضة العربي المسبوب في نسبه  
وصاح بالتلميذ: ويح الرجل! ماذا عساه أن يريد مني  
بعد هذا التخليط؟ قل له إن كان لا يسمع مني... قل  
له أنا القائل:

لا يفخرن الهاشميَّ

على امرئ من آل بربر

فالحق يحلف ما على

عنده إلا كقنبر

وذلك حسبه من جواب

ثم هجم صحفي آخر يبدو عليه الاغتباط بما سمع  
من زجر زميله، وأقبل يقول: تحية الاخوان إلى العربي  
العظيم: أنا ابن من أبناء سام

فهم أبو العلاء بالهوض وهو يكاتم السخط  
والضجر، وقال: أما فرغنا بعد من سام وحام؟



من هذا يابني ؟ وهو يوجه السؤال إلى التلميذ الحائر بين  
 أستاذه وبين طلاب الزيارة والسؤال من صحفيين  
 مستشرقين ومستطلعين ، فبادر الصحفي الآخر إلى  
 جواب أبي العلاء ، وتلطف في تسكين غضبه والترفيه  
 من ضجره ، وأنبأ أنه من أنباء إسرائيل . وأنهم والعرب  
 أبناء عمومة ، وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة  
 الآريين والساميين ، وإنما قلما تنفع في بلاد الجرمان  
 وقلما يجسر على نشرها بينهم أو نشر كلام يخالف  
 ما يروجه من أقوالهم ، ولكنه يبعث بها خفية إلى  
 أناس يذيعونها في الخافقين ، ويعتزون بها في خصومة  
 الجنسين وفي كل خصومة بين طرفين ، أحدهما آل  
 إسرائيل .

وهنا أدركت أبا العلاء فكاهته المطبوعة وسخره من  
 (تراحم الأضداد) على قديم الأجساد ، أو على ميراث

المال والعتاد وهم يلهجون بميراث الآباء والأولاد، وقال  
وقد تهيأ للمسير وتلميذه يعتذر بموعد القطار ووشك  
الرحلة وخوف التأخير :

(يا أخى : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله !  
أنتم شعب الله المختار في القديم ، والجرمان شعب الله  
المختار في الحديث ، فسالوه ولا تسألوني أيكما صاحب  
الخطوة الآن ؟)



مع المشيعين !

هبطت السكينة على نفس أبي العلاء

وقيل له إنك في أمان ليس لأحد عليك من سلطان  
وانك ممن قيل فيهم « لا خوف عليهم ولا هم  
يحرزون » ... خرجت من العالم الفاني فلا تمتد اليك يد  
ولا ينالك أحد من الناس بعدوان ، فقل ما بدا لك من  
رأى ، ولا تطل همسك ان نطقت بالحق ولا ترفع رأسك  
إن نطقت بالحال . أنت اليوم غيرك بالأمس : أنت اليوم  
من الخالدين .

وإنما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو  
في بلادهم بمذهبه في اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام  
فشجبوه وهموا أن ييطشوا به على تخوم بلادهم ، لولا



أن ردتهم عنه هذه الحصانة التي لاحصانة مثلها للمجالس  
النيابية ولا للهيئات الوزارية... وهي حصانة الخلود

لهذا كان مسلكه مع جماعة المشيعين أو الشيعيين  
حين نزل بأرضهم غير مسلكه المعهود من التقية  
والمداورة والصمت والفرار، فقال ما أراد أن يقول،  
ولم يعبأ منهم بزجرة ولا صخب ولا وعيد

وقف رفيق من رفقاءهم يخطب في حفل جمعوه  
للترحيب بأبي العلاء، أو للشيعي العربي القديم كما  
أسموه، فقال بعد اسهاب وترديد

« هذا أيها الرفاق رجل متناقد سبقنا بكل رأى من  
آرائنا وكل دعوة من دعواتنا، فنحن ننكر التفاوت  
في قسمة الأرزاق وهو ينكره في كل صورة من  
صوره، وكل منحنى من مناحيه، فيقول عن التفاوت  
بين العاملين وأصحاب الأموال .

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتته  
 فقير معرى أو أمير مدوّج  
 وقد يرزق المجدود أقوات أمة  
 ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج  
 ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى  
 بالمال وبين الشيخ الموسر وهو مدبر عن الحياة :

يعيش الفتى فى عدمه عيش راجب  
 ويثرى مسن للمعيشة سائم  
 ونحن ندعو إلى التآزر الاجتماعى والتكافل  
 بين العاملين فى الأمة ، وهو قد نادى بذلك من  
 قبل فقال .

الناس للناس من بدو وحاضرة  
 بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم  
 ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :



إذا ماتيننا الأمور تكشففت

لنا وأمير القوم للقوم خادم

وقال :

ملّ المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظامو الرعية واستباحوا كيدها

وعدوا مصالحها، وهم أجراؤها

واستطرد إلى أبعد من هذا في التكافل بين أعضاء

المجتمع الانساني فقال :

وكل عضو لأمر ما يمارسه

لامشى للكف ، بل تمشى بك القدم

بل استطرد إلى أبعد من هذا في المساواة فقال :

ان شقاً يلوح في باطن البر

ة قسم بيني وبين الضعيف

ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد إنما هي  
مصالح الطبقة الحاكمة تصوغها على هواها لتدعم  
سلطانها والغلبة على من دونها ، وهذا الحكيم العربي  
قد بين ذلك حق بيانه حين قال :

إنما هذه المذاهب أسبا

ب لجلب الدنيا إلى الروساء

وحين قال في اظهار سطوة المال وقدرته على  
تحويل الآداب وتحويل الحقوق :

المال يسكت عن حق وينطق في

بطل ، وتجمع إكراما له الشيع

وجزية القوم صدت عنهم ، فعدت

مساجد القوم مقرونا بها البيع

ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به

في قوله :



سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً  
وأخرج منها ما أممي سوى عقلي

ومثل ذلك قوله وهو يسير من كثير :

كذب الظن لا إمام سوى العقل  
مقيماً في صبحه والمساء

بل نحن قررنا تفسير التاريخ « تفسيراً مادياً » كما  
سميناه وهو قد أشار إلى ذلك فقال :

الناس للأرض أتباع إذا بخلت

صنوا وإن هي جادت مرة جادوا

والمع إلى ذلك مرة أخرى في هذا البيت على

سبيل الرواية :

قالوا البرية فوضى لا حساب لها

وإنما هي مثل النبات والشجر

وزاده توضيحاً وتقريراً حيث قال :

لم تجذبوا لقبيح من فعالكم  
 ولم يجتكم لحسن التوبة المطر  
 ولا أبالغ إذا قلت انه ذكر الاشتراكية بلفظها في  
 اللغة العربية بيت من أبياته العامرة يقول فيه :  
 لو كان لى أو لغيرى قدر أئمة  
 من البسيطة خلت الأمر مشتركا  
 وأنه قد أنحى على طبقات الفضوليين المتطفلين على  
 المجتمع الانسانى بغير عمل ينفعونه به حيث قال  
 ويعجبني دأب الذين ترهبوا  
 سوى أكلهم كدالنفوس الشحائح  
 وأطيب منهم مطعماً فى حياته  
 سعاة حلال بين غاد ورائح  
 فهو يأنف من التطفل الاجتماعى أياً كان المتطفلون  
 ولا يبيح القوت إلا لمن يكسبونه ويستحقونه ، وهو



قد فرق في قصائده ما اجتمع من مبادئ المذهب  
 الاشتراكي في كتب الأساطين ومباحث الدعاة العاميين ،  
 وتلك مرتبة ترفعه على أبناء عصره درجات ، وتجمعه من  
 أئمة الفكر في تاريخ الإصلاح بين الأقدمين والمحدثين  
 ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن يقفوا جميعاً  
 ليشربوا نخب الشاعر الذي جمع من مبادئهم في  
 منظوماته ومنشوراته ما لم يجتمع قط في كلام أحد من  
 الشعراء :

فنهضوا جميعاً وشربوا أقداحهم وقوفا ، ثم جلسوا  
 يترقبون وقفة الشيخ بينهم ليجيب على التحية والتكريم  
 ويجيب على بحث الخطيب بجديد من مقاله أو قديم ، والشيخ  
 لا يعلم أنه مطالب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب ، حتى  
 نبهه الرسول الذي يصاحبه في كل مكان إلى ما يترقبه  
 القوم ، ثم أخذ يسيده إلى المنصة فنزل الصمت على

الحاضرين ، وانقضت هنيهة لم يسمع بعدها إلا شيخ  
المعرة وهو يقول بصوت رقيق ولكنه ليس بالضعيف :

(... أنتم مشكورون على جميل ثنائكم واحتفائكم

بهذا العاجز المائل بين أيديكم . لكنه حائر في موقفه هذا

لا يدري ما تبغونه بمذهب الاشتراكيين أو بمذهب

التفسير المادى للتاريخ ، فأما قوله

لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة

من البسيطة خلت الأمر مشتركاً

— فإنما يعنى به التوحيد الإلهى ويريدُ به أن الناس

أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون فى جانب

الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ، وهو من قوله :

ويقول دارى من يقول وأعبدى

مه فالعبيد لربها والدار

أو هو من قوله :



ما في بني آدم غنى

فكلهم مقتر عديم

يعنى الذى ماله فناء

وذلك الواحد القديم

أوهو من قوله :

فقير كل من فى الأر

ض . أن العبد لا يملك

أوهو من قوله :

إله الأنام ورب الغما

م لنا الفقر دونك والملك لك

فأدرى من أين تسربت « الاشتراكية » إلى

معناه كما تصفونها فيما سمعت من خطب وقرأت من

بحوث وشروح

ما أردت إلا الرفق بالناس ، بل ما أردت إلا

الرفق بجميع الأحياء فكنت أوصي السيد أن يرفق  
بعبده . وأقول له :

إذا كسر العبد<sup>١</sup> الإناء فعدّه

أذاة له . أن الإناء إلى كسر

و كنت أوصي العبد والفقير أن يرفقا بالبيمة  
الخرساء . ويرينى منهما ما قلت أنه يرينى :

لقد رأيت مغدى الفقير بجعله

على العير ضربا . ساء ما يتقلد

الرفق الرفق . والرحمة والرحمة . ذلك ما أردت  
وذلك ما دعوت إليه . وما دار في خلدى يومئذ إلا  
الزكاة يؤديها أهل السعة للمضيقين

إذا وهب الله لى نعمة

أفدت المساكين مما وهب



جعلت لهم عشر سقى الغما  
 م وأعطيتهم ربع عشر الذهب  
 وكنت أعجب  
 كيف لا يشرك المضيقيين في النعمة  
 قوم<sup>١</sup> عليهم النعماء  
 وأوصي بما وصى به دين الحنيفية  
 وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم  
 لما رأيت بني الاعداء شاكينا  
 أما أن يأتي زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه  
 الغنى وتؤول فيه السيادة إلى العالمين المستضعفين على  
 سنة التساوى وشرعة المزاملة فذلك ما أنبأ به بعض  
 المنبئين في زماننا فقلت راويا ومجيبا :  
 يقال أن سوف يأتي بعدنا عصر  
 ويرضى، فتضبط أسد الغابة الخطم<sup>(١)</sup>  
 (١) جمع خطام وهو ما يوضع في أنف البعير ليقاديه

هيات هيات . هذا منطق كذب

في كل صقر زمان كائن قطم<sup>(١)</sup>

مادام في الفلك المريخ أو زحل

فلا يزال عباب الشر يلتطم

وأقولها اليوم مرات : هيات هيات ، وما أتم

فيه مصدق لما أقول ، وإن أعجبكم أن تسمعوا مني

خلاف المعقول والمنقول ، وأين لومي الرؤساء على

اتخاذهم المذاهب أسبابا لجلب الدنيا اليهم من قولكم

إن المذاهب لا ينبغي أن تكون إلا كذاك ؟ إنما أقول

على سبيل الانكار وأنتم تقولون على سبيل الاقرار ،

وشتان ما أردتم وما أريد .

بل ما لكم لا تدعون اني ناديت بمذهب الفوضى

حين قلت :

(١) القطم : اشتهاة اللحم



إن أكلتم فضلا وأنفقتم فض

لا فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدي النا

س إذا رُدت الأمور اليكم

وما ناديت بالفوضى ولكني أردت اتقاء الوالين

بالعفة والزهادة

قال المعري ذلك وكأنا كان متجليا عليه في تلك

الساعة قوله :

إن عذب المين بأفواهكم

فان صدق بضمي أعذب

ولم يكن متجليا عليه قوله إنه يفر بالصمت

من المجال .

أما ما حدث من أثر هذا الجواب في نفوس السامعين

من معاشر الشيوعيين ففنى عن السررد والافاضة ،  
وحسبك منه صيحة الرسول في أذن الحكيم : كفى  
كفى أيها الأستاذ الرحيم فانك إن كنت على نجوة في  
حصانة الخلود ، فما أنا بين القوم من الناجين !



في بلاد الشمال

خرج المعري وتلميذه من أرض الشيوعيين وهما  
يلعنان الديار والديارين ، وأصبح التلميذ ولا هم له بعد  
إفلاته من برائن القوم إلا الوصاة بالتقية والمحاذرة ، قائلاً  
ومعيداً ما قال : مولانا الشيخ ! إنك في حرز من ضيم  
الأقوياء ، وأمان من سطوة أبناء الفناء . أما تلميذك  
ومريدك فلا حرز له منهم ولا قوة له معهم ، ولا أمان  
أن يبطشوا به بطشة واحدة ، فاذا أنت يا مولاي قد  
فقدته في منتصف الطريق . وكان الشيخ يداعبه فيظهر  
الاصرار على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد في سابق  
أيامه بدار الفناء :



ان عذب المين بأفواهكم

فان صدقي بضمي أعذب

قائلا : يا بني ! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت ...  
 فاصبر على بلائك واحتمل عاقبة رأيك . فينتفض التلميذ  
 خوفاً وحيرةً ويعيد الوصاة والرجاء ، مناشداً مولاه الرحمة  
 التي أرادها لبني الانسان وبني الحيوان

فلما أطال التلميذ في وصاته قال الشيخ : ما بالك  
 يهكذا تخاف وتوصي وتلحف في الوصاة ؟ العلك ذاهب  
 بنا إلى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ إن  
 كان ذلك فعد بنا إلى المعرة واختصر بنا مسافة هذه  
 السياحة ، فلا طاقة لي بسخافة قوم آخرين كأولئك  
 الذين فارقناهم في بلاد الشيعيين ، ولا بسخافة قوم  
 كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكريين  
 قال التلميذ : كلا يا مولاي الجليل . ما إلى هذه

البلاد وأمثالها نرحل ، وإنما أخاف ما ليس في الحسبان ...  
 إنما رحلتنا بعد اليوم إلى أقوام لا يحجرون على المقال  
 حجر أولئك الأقوام ، ولا يقسرون الناس على رأى  
 واحد وضمير واحد ، ولكنهم يقولون ما يشاءون  
 ويفكرون كما يشاءون ، فان خامرني الخوف ونحن  
 مقبلون عليهم فذلك يامولاي خوف الجبل بعد  
 خوف الشعبان .

وطالت الرحلة في تلك البلاد بلاد الشمال ، وتقلب  
 المعرى وتلميذه بين أهل النرويج وأهل السويد وسائر  
 تلك الأنحاء ، فحدا كثيراً من الأحوال ، وشهدا أنماطاً  
 من الحكم والعلم لم يشهداها في البلدان الغربية كافة .  
 فطاب السرى وطاب المقام .

ونزلا آخر المطاف ببلاد الدانين أو الدنمركيين ،  
 فهما الآن في مدرسة جامعة دعى إليها حكيم المعرفة بأمر



من ملك البلاد ووزرائها ، على عادة القوم في اغتنام كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة ، ليسألوا الشيخ ويستطلعوا طبعه ، ويساجلوه القول ويظفروا بما شاء من جواب

قال طالب علم : أيأذن الشيخ في سؤال عن حكومة ذلك المعشر الذين كان بينهم قبل أن يرحل إلى أقطار الشمال ، وأعنى بهم معشر الشيوعيين ؟

قال الشيخ : تلك حكومة كلها رياء وعدوان ، كاتبها يفعل فيها ما يريد ، ولو جرى أمرها على الصدق الصراح لما كان لهذا الكاتب من صولجان إلا القلم والقرطاس

فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك الكاتب وزملائه على سنة الشورى والمساواة ؟ فامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن

يسترسل في السؤال : مه يابني مه ! أى شورى وأية  
 مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب ذلك الكاتب  
 بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ؟ أعندك يا صاحبي  
 قصيدة شاعر القازاق الذى أنشده مديحه ونحن هناك ؟ قال  
 الشيخ هذا والتفت إلى التلميذ الرسول ، فوقف التلميذ  
 الرسول ماثلا على المنصة وقال : نعم يامولاي !!

ثم مضى ينشد قصيداً يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنباء ؟ كلا ! فبعض الأنبياء

يكذبون

« هل أشبهك بالبحر المحيط ؟ كلا ! ففى البحر

المحيط صخور يتصدع عليها السفين

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل إلا

وقته فى مرأى العيون



« هل أشبهك بالقمر؟ كلا! فالقمر لا يضيء لا

في لياليه

« هل أشبهك بالشمس؟ كلا! فالشمس إنما

تشرق في يوم صحو لا غمام فيه »

وفرع التلميذ الرسول من إنشاده فعاد المعري

يقول لطالب العلم الذي سأله ذلك السؤال : أو سمعتم

أقبح من هذا الدهان في مديح عاهل أو سلطان؟

ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون في الملوك

ملكاً واحداً كان له من الأمر النافذ في الرقاب والأذنان

ما يأمر به كانت الشيوعين فيطاع .

وسأل سائل : أو لم ينصفوا الأجراء من أصحاب

الثراء؟

قال المعري : لا يا بني . أنهم ظلموا أصحاب الثراء

ولم ينصفوا الأجراء ، ولقد أخذوا المال من ذويه ثم

أفرغوه في مصانع الدولة ، وما الفرق بين مال في أيدي  
التجار ومال في أيدي الولاية؟

ورجع السائل إلى سؤال لاحقٍ بما تقدم فقال :  
لكنهم على ما يقولون قد عدلوا في الأجور بين العاملين  
فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه

قال المعري : أجر اليوم واحد لا خلاف فيه  
ولكن العامل المحظوظ عندهم قد يعطى عدة أجور ،  
فهي مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء

وفرغ السائلون عن معاشر الشيوعيين فمض  
السائلون عن أمم الشمال

قال طالب علم : أعل الأستاذ قد حمد من قومنا  
ما ليس يحمده من أولئك الأقوام؟

قال المعري : نعم ولا أداجيك يا بني ... فقد رأيت



أنكم أبعد الناس عن مداواة ، وإن بقيت منها أثارة  
في جميع بني حواء

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟

قال المعري وهو يوجز في جوابه : حمدت منكم  
يا بني تجارتكم التي بنيتموها على التعاون بين الباعين  
والشارين ، فما منكم إلا من يأخذ كفايته ويعطي  
كفاية الآخرين ، ولا ربح لأحد منكم خاصة ، بل  
أتم جميعاً راجحون ، لأنكم بائعون شارون

ذلك يا بني سبيل قوام بين احتكار المحتكرين وبين  
اشتراك الشيوعيين ، فاذا اهتدى اليه الناس جميعاً فلعلهم  
يستريحون من تفریط هؤلاء ومن افراط هؤلاء

وحمدت منكم يا بني أنكم لا تفتحون البلدان  
ولا تقتحمون الأسواق ، وأنتم مع هذا غانعون راجحون  
لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون

وحمدت منكم يا بني تعليم الفقير وتعليم الضعيف ،  
فما من طفل بينكم إلا وله مدرسته وله معلمه ، وإن  
أهمله أناس في بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور  
ظاهر عليه

وحمدت منكم نظافة وصحة ورخاء تعم الأَكثَرين  
ولا يجرمها إلا القليل

وحمدت منكم رعاية الشيخ الكبير ، فلا يُقَلَى  
عندكم ولا تبخلون عليه بالرزق الكفاف

وحمدت منكم — وعرشكم أعرق العروش في  
أرض المغرب الحديث — تواضعاً في الملك لا يرى من  
أحدث العروش .

حمدت منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟  
فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير ، من الشيخ  
الكبير .



قال المعري وهو يتسم: أفتأذنون لي — بعد —  
أن أحمد منكم شيئاً آخر فوق ما حمدت؟ أتأذنون لي  
أن أحمد منكم الإيجاز في السؤال والقصد في المقال؟  
فكان سكوت، وكان ضحك ودعاء، وكان ذلك  
جواب الشيخ الكبير من سائليه.





عمر الزبير

قال أبو العلاء : ما كنت أحسب أن سأرى هذا  
يوم قلت في مساوىء ذرية البنات :  
وإن تُعطَ البنات فأى بؤس  
تبين في وجوه مقسمات  
يردن بعولة ويردن حلياً  
ويلقين الخطوب ملوّمات  
ولسن مدافعات يوم حرب  
ولا في غارة متغشّات !  
فها نحن أولاء في أرض أندلس نراهن مدافعات  
يوم حرب ، ومتغشّات في غارة ... بل غارات



كنا نسمع عن هذه الأرض فنحضر في اخلاذنا  
الجنة وحوورها ونعيمها ، فاليوم نشهدها شهادة القرب  
فاذا هي جحيم مسجور ، وإذا بالحوور فيها زبانية يقذفون  
بالشرر ويتقلدون السيوف . . . ما أعجب ما ترينى  
يا بنى ! وما أعجب الظباء يقطعن بأظافر النمورة وينهشن  
بأنياب الذئاب

قال التلميذ : أو حق يا مولاي انه عجيب ؟ ألم يقل  
به أفلاطون في الحكمة القديمة ؟ حسبت يا مولاي أنك  
على ذكرٍ مما قال حكيم يونان ومعلم رسطاليس !

فتأوه الشيخ في استذكار طويل ثم قال لتلميذه :  
ما سمعت بهذا من كلام يونان وحكائها . ففعل من عجائب  
زمانكم أن يكون هذا الزمان أقرب إلى أفلاطون من  
زماننا نحن السابقين الأقدمين . . . ماذا قال معلم  
رسطاليس في حرب النساء أصلحك الله :

فترجم له التاميز كلمة من قوانين أفلاطون ،  
يقول فيها :

« على البنات أن يتعلمن صناعة الحرب بأجمعها ،  
وعلى النساء أن يعالجن الرياضة ونظام الجيوش واستخدام  
السلاح ، ليستطعن — بين أسباب شتى — أن يحرسن  
ديارهن وأطفالهن حين يندب الرجال للحرب في أرض  
بعيدة ، وقد يقتحم البلاد جيش مغير كما يتفق في كثير  
من الأجيال ، فيكون خزيا للدولة أن يبلغ من جهل  
النساء بفنون الحرب أن يعجزن عن القتال والاستماتة  
في الذود عن الأطفال . وألا يكون لهن من عمل في  
هذه الغارة إلا أن يهرعن ناحبات ناجيات إلى الهياكل  
والمحاريب ! »

فأوشك أبو العلاء أن يؤمن بصدق ما قال  
الفيلسوف ، وتزعت فيه نوازع العقل مرةً فكدت أن



تطفي على نوازع الطبع والعادة ، لولا أن غلبته النجيزة  
العريية وغلبه تراث الشرق العريق فالتفت إلى تلميذه  
منشداً؟

وحمل مغازل النسوان أولى

بهن من اليراع مقلبات !

نعم وأولى من الحديد والنار

ثم استرسل منشداً :

إن من أكبر الكبائر عندي

قتل حوراء غادة عطبول

كتب القتل والقتال علينا

وعلى الغايات جر الذبول

ذلك يا بني حكم ابن أبي ربيعة ، وهو أولى بالحكم

في هذه القضية من معلم يونان ... أ كثير يا بني أصحاب

هذا الرأي في زمانكم الحديث ؟

فأجابه التلميذ وقد لبس لبوس الأستاذ هذه  
 المرة : هم غير قليلين في المغرب والمشرق ، فمنهم في أرض  
 الصقالبة ومنهم في أرض الصين وما وراءها ، وكل من  
 يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة خليق أن يرى مارآه  
 هؤلاء . فما بال المرأة لا تحارب والحرب اليوم آلات  
 تدار أسهل من إدارة المغزل ومن شكة الأبرة في الثياب ؟  
 ✓ قال الشيخ : هي صناعة قتل سهلت أوصعبت ، فما  
 لكم لا تتركون للمرأة صناعة الولادة وتدعون صناعة  
 القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ وما لكم لا تجعلون  
 جيشها كله على مثال تلك الجيوش التي حدثتني أنهم  
 يحشدونها في بعض البلاد ، لتقويم الأبدان والصولة  
 بياس الجمال ؟

فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يامولاي !  
 لعل المقاتلين لا يستغنون عن مدد من النساء إذا قل الرجال



فأدركه الشيخ قائلاً: بل إذا قلت الرجولة وأصبحت  
 الحرب وليست هي من الفروسة ولا من البطولة...  
 ما أحسب الآفة عندهم أن النساء أصبحن كالرجال ،  
 وإنما الآفة فيما أخل أن الرجال أصبحوا كالنساء ،  
 فلا حرج إذن من المساواة في القتال !

ثم سأل الشيخ: ما هذا الغرام بالحرب في كل  
 شعب من شعوبكم حتى استنفدت رجالكم وجارت  
 على نساءكم، واستنفدت سلاحكم وجارت على أدوات  
 السلم في أيديكم؟ ما هذه الحاجة الملحة إلى أزهاق  
 الأرواح وتمزيق الأبدان؟ أهي فرط كراهة منكم  
 للحياة أم هي فرط خوف من المنية؟ أم أنتم مدفوعون  
 إلى حيث لا تعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون؟

وكأننا خشي التاميد أن يحاسبه الحكيم على سيئات  
 عصره، وأن يسأله في هذا سؤال المتهم عن وزره، فأجابه

وهو لا يفقه ما يعنيه :

عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم !! فهي معضلة  
من معضلات الزمن الأخير نسأل عنها وليس لها من  
مُجيب :

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه في  
تأمل طويل ، وكأنما أفاق من غيبوبة علوية حين  
أقبل يقول :

« إنما الحرب يا بنى حيلة من ليست له حيلة ، يقدم  
عليها من يأمن شرها أو من يخاف جميع الشرور فلا  
يبقى له ما يأمن . . . . . وإنما يستमित في الخصومة من  
يخاصم الأقدار وإن حسب أنه مخاصم إخوانه من بنى  
الانسان : إنما يستमित في خصومته من يطلب الدوام  
لشيء لا يمكن دوامه أو يطلب التبديل لشيء لا يمكن  
تبديله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم .



ومن حارب القدر يابني لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف  
سلاحه ولا بنصف رأيه : من حارب القدر فأيسر جهده  
أن يستجمع ، وأن يستमित ، وأن يخسر في الجانبين  
وينهزم في الصفين

وهؤلاء أبناء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ،  
ويريد فريق أن يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذلك  
في يد إنسان ، ولو كان في يد إنسان لكان ، ولم يستعر  
بينهم كل هذا الشنآن

قال التاميد : الأداة لهذا الشنآن بين الفريقين ؟  
قال الحكيم : حتى يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد  
كلاهما نصف اعتقاده . فإذا انقسم السيف الأخير في  
أيدي هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء في سلام ! وإذا شك  
كلاهما في حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف  
الحق مع خصمه فهناك رجاء في سلام . . . أما وهناك  
بقية من قوة في الصفين وإيمان بالحق الكامل في الجانبين

فلا سلام ولا رجاء فيه !

قال التلميذ وكأنه يمزح :

أو لا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف

باطله و نصف الحق عند خصومه ؟

ففظن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتمتم

بين شفتيه :

بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد

فيسمع مني سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد

ولأفسد من ذلك أن أذهب شفيعاً في حرب

الأقدار ، وسفيراً بين الأعصار والنار ...



المِراة

نشط الشيخ في ذلك اليوم للبحث والمساجلة ، فأقبل  
 على تلميذه يسأله : ألا تحدثني يا بني عن تلك الفلسفات  
 التي ذكرت لي أنهم يدورون بها حول المرأة في الغرب  
 الحديث ، وفي زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتني بالقليل  
 ✓ منها يوم حدثتك برأيي في جنديات الأندلس المقاتلات ،  
 وقد لاح لي مما أنبأت أن فلسفات القوم في هذا المجال  
 تشتمل على كثير ، وأن آراءهم اليوم يوشك أن تنصرف  
 كلها إلى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الاباحة  
 وماشا كل ذلك من فلسفات ، وإني — كما تعلم — امرؤ  
 قد عنيت بهذا الأمر وأفرطت في العناية به حتى لزمتم



الرهبانية ، فإذا يقول القوم فيه ؟ وعلام يقع الخلاف ؟  
وكيف يختلفون ؟

قال التلميذ : إني لأستحي أن أقوم من الشيخ مقام  
الأستاذ ولو في هداية الطريق ، فكيف بالهداية في  
الحكمة وأقاويل الحكماء !

قال أبو العلاء : اعتبرها يا بني هداية طريق في بلد  
أنت به أعلم وأنا فيه غريب ، فالعربة قد تكون في  
الزمان كما قد تكون في المكان ، وأنت صاحب الدار  
يا بني في زمانك ، فقل ولا عليك من مقام الأستاذ ومقام  
التلميذ . ألسنت أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه إلى

سبل الحق غلام ما احتلم

فقل يا بني ولا تتحرج . وإن أبيت إلامقام التامذة .

فاقنع منها اليوم بالطاعة فيما أدعوك إليه .

فلم يسع التلميذ إلا أن يجيب سؤال الشيخ ،  
 وأنشأ يقول وهو متلعم في المقال :

هذه الفلسفات يا مولاي كثيرة كما لاح لك من  
 بوادر الاشارة العارضة ، فمن أصحابها من يجعل حب  
 المرأة الحب كله ومرجع الأهواء بحذافيرها . ويزعم  
 أنه حب يضمرة الطفل في طبعه وهو يرضع من ثدى  
 أمه أو يحبو إلى لعبته أو يتواثب مع لداته ، وإنه ما من  
 خبيثة يبطنها الانسان إلا ومناطها هوى من هذه  
 الأهواء مكبوت ، ونزعة من هذه النزعات يختلف  
 فيها التفسير والتأويل ، وقد تفصح عنها الأحلام التي  
 ينجح بها الانسان سريره في المنام ، وإن كانت المناجاة  
 هنالك بالرموز والأشكال دون المعاني والأفكار .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب  
 الأول ثم عدله وتقحه باضافة حب القوة إلى حب



المرأة ، أو باضافة المجد والجاه إلى الشهوة والغرام .  
 ومنهم من يقول إن الأخلاق ينبغي أن تختلف  
 بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء ،  
 فالناس في حاجة إلى غذاء متشابه العناصر متقارب  
 التركيب ، وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع  
 الأبدان مطلوب في جميع الأحوال ، فكذلك الأخلاق  
 في جملتها من عمل الخير والدعوة إلى الصلاح قريبة  
 العناصر متشابهة الأوصاف ، ولكنها قد تختلف مع  
 اختلاف المزاج كما يختلف الطعام على حسب البنية ، حتى  
 يكون دواء لهذا ما هو سم قاتل لذاك . فليس لجميع الناس  
 قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغي  
 أن يجرم على أناس ما يباح لآخرين .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الاباحة  
 لأنها حاله الطبيعة ، ومنهم من ينكر عليه هذا الزعم

فيقول إن الاباحة هي أبعـد الأحوال عن طبيعة الأحياء :  
 - ألا ترون إلى العجماءات تمنع وتقاتل ثم تعتمـم بالعفة  
 والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون إلى قبائل الفطرة  
 الأولى كيف تحوط العلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم  
 والشعائر وكيف تحفها بالتأمم والشعوزات ؟؟ فالطبيعة  
 أحجى أن تكون إلى جانب الامتناع والاعتصام دون  
 الاباحة والانطلاق ، ولا سيما في غرائز الحب ودوافع  
 الشهوات . والحضارة قد علمتنا أنه حيث تكون القيود  
 في الحب تكون نهضة الشعوب ، وحيث تكون  
 الاباحة في الحب يكون الركود ثم الدثور .

• ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى  
 الاباحة لأنها الحل الصالح عنده لمشكلات الأمم في العهد  
 الحديث . فالناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون على المال ،  
 والناس يتنافسون على المال لأنهم يشترون به الشهوات



والمظاهر التي هي كالأشراك لاقتناص النساء . فاذا بطلت  
قيود الجنسين بطل في زعمهم كل ذلك وخفت حدة  
الزحام والعداء وقلت بواعث الفتنة والاعراء

• ومنهم — وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة في دولة  
عظيمة — من يوصى الرجل أن يجرب كثيراً من النساء  
ويوصى المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال قبل الايواء إلى  
حرم البيت وحصن الزواج . فان الرجل والمرأة إذا قضيا  
الشرط الأول من الحياة في التطواف والتجوال سكنا  
إلى الزواج وهما جانحان إلى استقرار يعين على الوفاء ،  
وقناعة تعين على العصمة ، وأصبحا زوجين رشيدين  
وأبوين صالحين مدى الحياة

• قال المعري : حسبك ! حسبك !

قال التاميد : نعم حسبى حسبى . فقد تعبت من  
« دور » الأستاذ وشاقتي أن أصغى إليك إصغاء التاميد

نخذ دورك الساعة يا مولاي وقل لنا ماذا ترى في هذه  
الآراء، وماذا تقول في هذه الأقاويل

ووجه الشيخ قليلا ثم أنشد من كلامه القديم .  
لو أن كل نفوس الناس رائية

كرأى نفسى تناءت عن خزاياها  
وعطلوا هذه الدنيا فاولدوا

ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ثم راح يقول :

إن ما سمعته يا بنى بعضه سديد وبعضه حق  
وبعضه هراء

✓ حق إن المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع

والمرء ليس بزاهد في عادة

لكنه يتربص الامكانا

وامها تفتن من هجر الدنيا كما تفتن من غاص



في غمارها وتقلب في أوزارها

راحت إلى القس بتقريبها

وبيتهم — أولى بقربانها

وزارت الدير وأثوابها

ضامنة فتنة رهبانها

وإنها مقياس الحياة لا يعافها إلا من عافته الحياة :

✓ وإذا الفتى كره الغواني واتفق

مرضا يعود وضره ما يطعم

فقد انطوت عنه الحياة، وكاذب

من قال عنه يبئت وهو منعم

وإنها خفية المسارب في دخائل الشهوات :

وإنما الخود في مساربيها

كربة السم في تسربها

وانه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها

من صغير :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً

فلا يدخل على الحرم الوليد

كل هذا حق وكل هذا سديد في مذهب صاحبكم  
الحديث وفي مذهب الحكمة القديم ، إلا ان المرأة  
ليست كل ما يثير النفس ويوسوس في الضمائر وينبعث  
مع الغواية ، وليست كل ما رامه الرجل

وإنما رام نسوانا تزوجها

بما اقتراه وأموالا تمولها

أو قل مرة أخرى :

وإنما رام عزاً في معيشته

أو خاف ضربة ماضى الحد قلام



أوشاء تزويج مثل الظبي مُعامَة  
 للناظرين بأسوار وأعلام  
 ذلك قوام الرأيين ووافق الخلافين . أما الرأي  
 في الزواج :

✓ فلا يتزوج أخو الأربع

بين إلا مجربة كهلة

على إنني أقول كما كنت أقول :

إن الأوانس أن تزور قبورها

خير لها من أن يقال عرائس

وأقول كما كنت أقول :

✓ تزوج بعد واحد ثلاثة ثلاثا

وقال لعرسه يكفيك ربعي

فيرضيها إذا قنعت بقوت

ويرجمها إذا مالت لتبع

✓ ومن جمع اثنتين فما توخى

سبيل الحق في خمس وربع

وأقول كما كنت أقول :

✓ خير النساء اللواتي لا يلدن لكم

فان ولدن خيرا النسل ما نفعنا

وأقول كما كنت أقول :

وأصبحت في الدنيا غيبنا مرزءاً

فأعفيت نفسي من أذاة ومن غبن

ثم أقول كما كنت أقول :

شر النساء مشاعات غدون سدى

كالأرض يحملن أولاداً مشاعينا

ولأأكتمك مع هذا انى

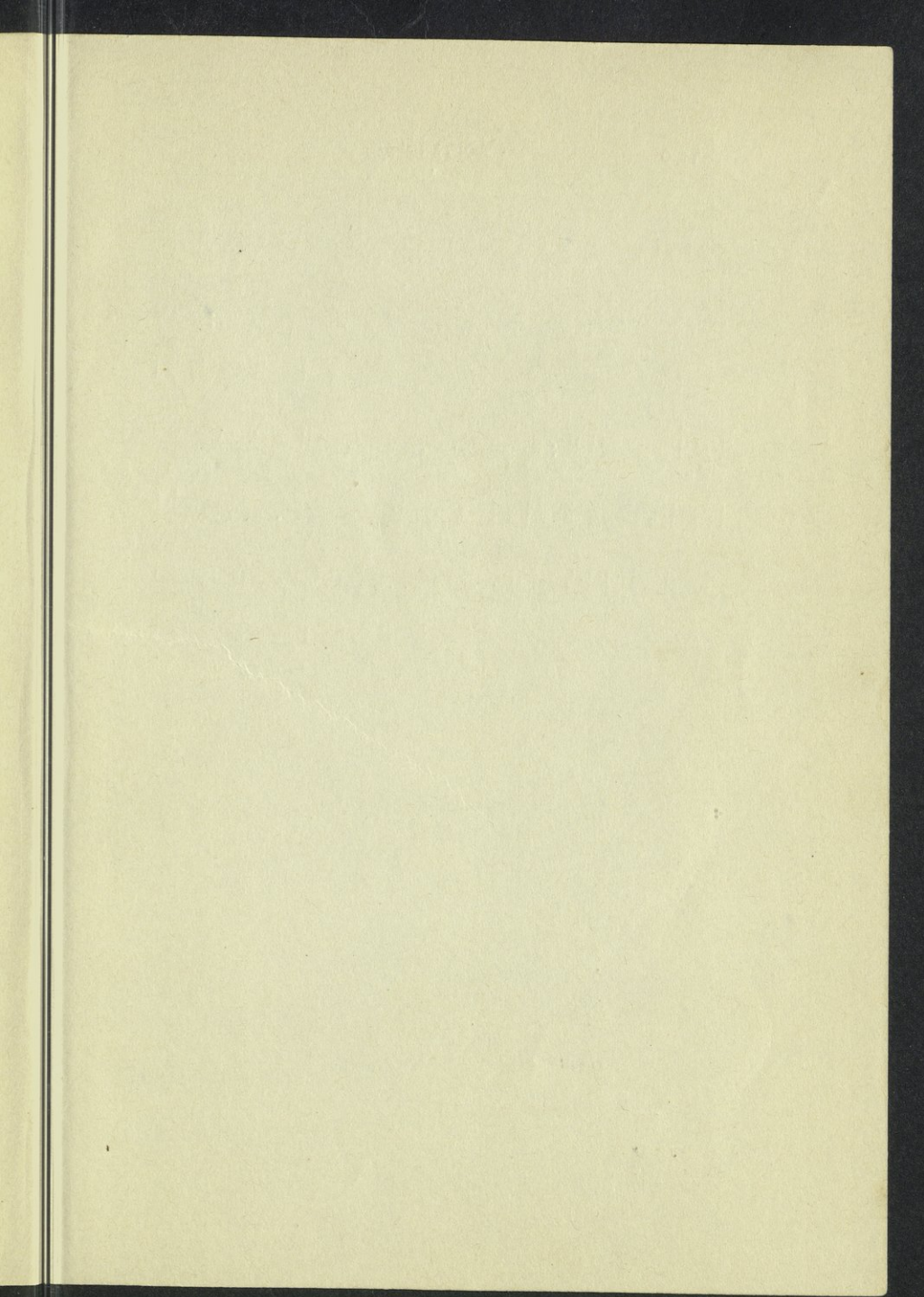
تنازعنى إلى الشهوات نفسى

فلا أنا منجح أبداً ، ولا هى



فأسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، ويهمس في أذنه  
قائلاً : « وفيم المنازعة ونحن في بلاد الغرب والشيخ قد  
أفرط في الصيام »

فقهقه الشيخ وهو يصيح به : اليك عنى أيها  
الخبيث ... قد خرجنا من هذه المحنة وصارعنا فيها  
أستاذك القديم ابليس ... والله يعلم أ كنا فيها صارعين  
أو مصروعين ! ذلك سر مكتوم وحديث محتوم !





المكبران

كان آخر الخطباء في الجمع العظيم يقول :

« إنها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول إنها

مصادفة سعيدة ؟ أخشى أن أغضب الحكيمين المحتق

بهما إذا أنا قلت ذلك ، فليس المعري حكيم المشرق ولا

شوبنهاور حكيم المغرب ممن يدينون بالسعادة ، وليس

اجتماعهما اليوم في عالم الذكرى من دواعي التفاؤل

والاستبشار . . . فالعالم مقبل على خطوب وكروب

وأهوال وحروب ، ولم يكن مذهب التشاؤم قط أدنى

إلى الصدق والافئاع مما كان في هذا العصر المرهوب

الجوانب المحذور العواقب ، فاذا سعد الحكيمان بتحقيق



ما رأياه وإثبات ما قرراه وإنجاز الوعيد وتقريب البعيد ،  
فهو اجتماع سعيد ! »

غد — وهو الثاني والعشرون من شهر فبراير —  
هو تمام مائة وخمسين عاماً مضت على مولد الامام  
الأكبر في مذهب التشاؤم بين الغربيين ، وهو أثر  
شوبنهاور . فما أعجب المصادفة التي جمعت بينه وبين  
الامام الأكبر في هذا المذهب عند الناطقين بالضاد على  
ملتقى ألف عام من مولده المجيد إن لم يأذن لنا أن نقول :  
السعيد !

« أنقول إن روح العالم في شدائده وبأسائه قد  
استحضر روجيهما فخرًا ، وقرب بين أفتقيهما فاقتربا ؟  
أنقول إنها مؤاساة من عالم الخلود لعالم الشقاء والبأساء ؟  
أنقول إنهما نذيران أو بشيران ؟

« على أننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من

قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم وإن حقق لنا  
مخاوف المتشائمين .

« فالتشاؤم — كالتفاؤل — إنما يكون مع الحب  
والاهتمام ، أو مع الظن الحسن والأمل المشبوب ،  
تجىء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولاً أو شبيهاً  
بمعقول . أما إذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا  
إخلاف ظنون .

« الذى يهجو المرأة يحبها كالذى يثنى عليها ، والذى  
يملاء الغيظ منها كالذى يملأه الشوق إليها : كلاهما يعتد  
بها وبشتغل بأمرها ويحسب الحساب لاقبالها وإعراضها .  
أما الذى يلهو بها فلا شوق ولا غضب ، ولا فرح بلقائها  
ولا حزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ولا كنه  
من طلاب الفراغ العابثين .

« كذلك الحياة فى زماننا قلما تتسع فيها النفس



لتفاؤل أو تشاؤم ، وقلما ترى فيها إلا مُزجياً لفراغ أو  
لا هياً بحاضر مبتور ، لا يرجع إلى ماضيه ولا يتقرب  
عقباه .

« كانت الحياة حليلة نحاسها على الأمانة والخيانة ،  
وكانت في بعض أجيالها عشيقة نحاسها على العطف  
والمودة ، فأصبحت عندنا بنتاً من بنات الهوى لا نحاسها  
على شيء ولا نغار عليها من أحد ، ولا ننحى عليها بلوم  
ولا نخصها بثناء .

« فنحن كما قلنا : نكرم زماننا هذا ونكبره  
ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم . ليتنا  
كننا متشائمين ، وليتنا نحفل بالحياة .... ما أخالنا نخطئ  
إذ نقول إن تشاؤم أبي العلاء وتشاؤم زميله في الغرب  
سعادة بالقياس إلى ما نحن فيه ... ! »

كان هذا القائل آخر الخطباء في الجمع العظيم الذي التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين في إحدى العواصم . فكان في هذه التحية من التزكية للمذهب المحتفى بصاحبيه ، كما كان فيها من المناقضة له والتشكيك فيه ؛ لأنها جاءت في إبانها دليلاً جديداً على اتساع أفق الحياة واستغراقها لجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل ، كما تهضم البنية القوية ما ينفع وما يضير .

وقد خرج حكيم المعرفة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب .

« أحق أن التشابه بيني وبين الرجل على هذا المدى من القرب والتجاور ، مع ما بيننا من مسافة الزمان ومسافة العنصر ومسافة الفكر واللسان ؟

قال التلميذ ، بل هو أقرب من ذلك يا مولاي .



فلا عجب أن يتفق الرجلان في النظرة إلى الدنيا على  
تباعد الجيرة وتفاوت السيرة ، ولكن العجب العاجب  
أن يتفقا على التفصيلات ويتشابهان في الدقائق  
والعرضيات ، وفيما ليس هو من جوهر المذهب ولا  
من الضروريات التي يقضى بها التوافق في الأصول ،  
والتماثل في العقول .

قال أبو العلاء مستفهماً : ومثال ذلك ؟

قال التاميد ، مثال ذلك أن الرجل يقول : إن المرء  
يعيش إلى السادسة والثلاثين من عمره كما يعيش التاجر  
الذي ينفق من ربحه ونوافله ، ثم ينحدر وينقص ولا  
يزال في نقصه وهبوطه حتى ينفق من رأس ماله إلى  
يوم أفلاسه ووفاته . وأنت يا مولاي تقول :

إذا ما تقضى الأربعون فلا ترد

سوى امرأة في الأربعين لها قسم

فإن الذي وفيّ الثلاثين وارثي  
 عليهن عشرًا للفناء به وسم  
 زمان الغواني عصر جسمك زائد  
 وهن عناء بعد أن يقف الجسم  
 والرجل يقول بغلبة الارادة على الفكرة ،  
 وضياح العقول مع الشهوات ، وأن العقل يكف عن  
 العمل ، وأن العمل لمن لا يعقلون ، وأنت يا مولاي  
 تقول :

وتفكرّ الانسان يثني غربه

ويرد جاحه إلى الاقصار

وتقول :

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم

إلى النغي طبع أخذه أخذ صاحب



وتقول :

وقد غلب الاحياء في كل وجهة  
هوام ، وإن كانوا غطارفة غلبا

وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر  
فما له في ابتغاء الرزق تقدير  
والرجل يرى ان النوم سلفة مستعارة من الموت ،  
وهذا رأيك في آيات كثيرة منها :  
ونومى موت قريب النشو  
ر ، وموتى نوم طويل الكرى

ومنها :

وموت المرء نوم طال جداً  
عليه ، وكل عيشته سهاد

ومنها :

وفضيلة النوم الخروج بأهله

عن عالم هو بالأذى مجبول

والرجل يعطف على الحيوان ، ويؤثر صفة الكلب

على صفة الانسان ، وأنت مع تحريمك أكل الأحياء

تقول في الكلب خاصة :

سُببتَ بالكلب فأنكرته

والكلب خير منك إذ ينبح

والرجل يقول إن الارادة تورث من الآباء ، وان

الذكاء يورث من الأمهات ، وقد أوشكت يا مولاي أن

تقول ذلك حين قلت :

كأنَّ حواءَ التي زوجها

آدم لم تلقح بشخص أريب



قد كثرت في الأرض جهالنا

والعاقل الحازم فينا غريب

والرجل يرفع من أقدار نساك الهند، وأنت كذلك

ترفع من أقدارهم ، ويذكر مذاهب المجوس في الخير

والشر ، وأنت تذكرها كما جاء في قولك :

فكر « يزدان » على غرة

فصيعغ من تفكيره « اهر من »

والرجل يقول في الزمان : « نحن نُسَلَبُ يوماً كل

مغرب شمس » ويقول فيه : « إن وجودنا مستقر على

الحاضر الذي ما نبي أبداً متسرباً طائراً فلا بد له — أى

لوجودنا — أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل في

الوصول الى الراحة التي ينشدها ، مثلنا في ذلك مثل المنحدر

من جبل عال فهو يسقط إذا حاول الوقوف

وذلك شبيهه يا مولاي بقولك :

نفس بعد مثله يتقضى

فتمرّ الدهور والأحيان

وقولك :

أما المكان فتأبث لا ينطوي

لكن زمانك ذاهب لا يثبت

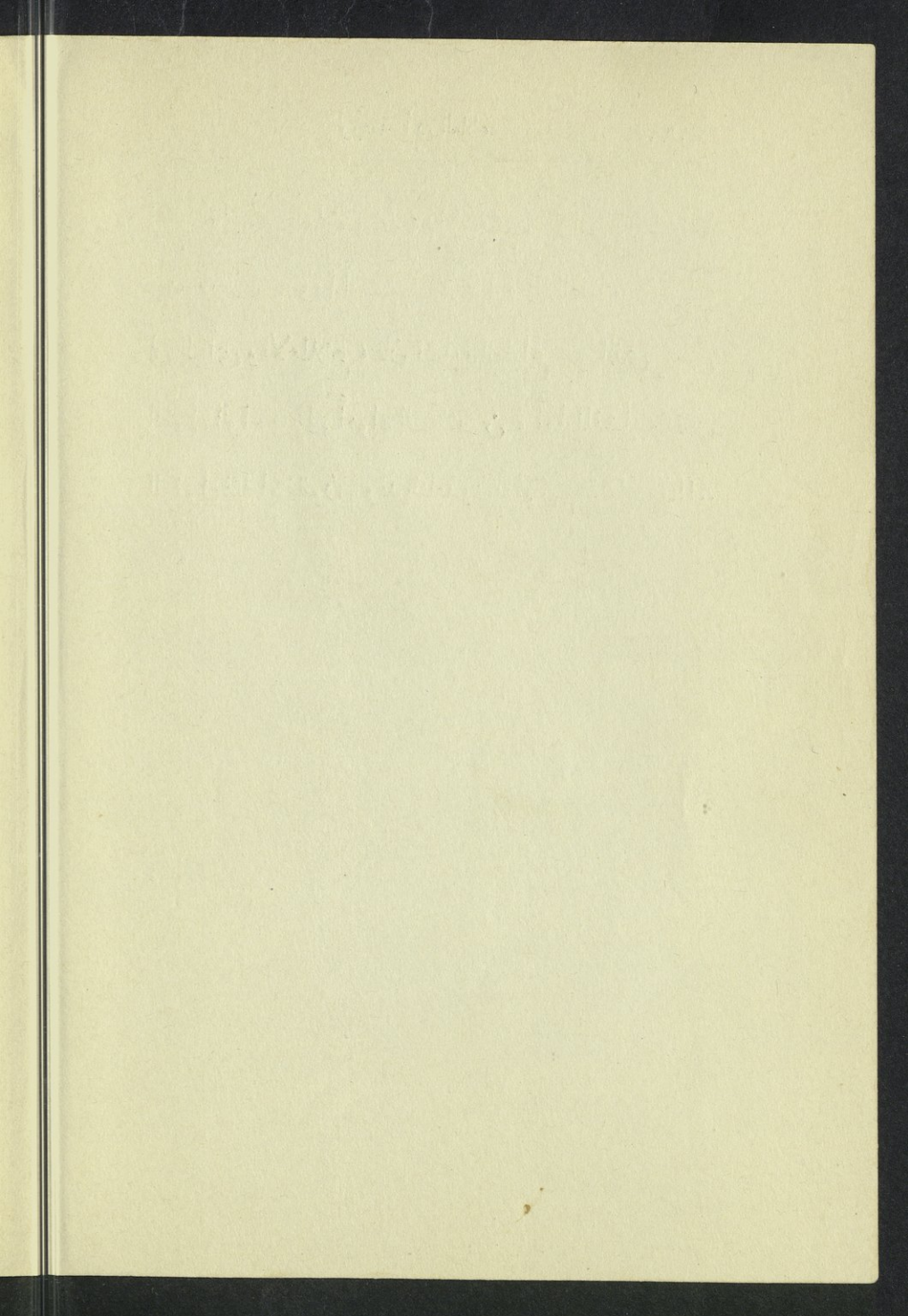
وغير ذلك التشابه كثير ، يدل عليه تناقض التعمير  
بينكما كما يدل عليه التقارب في التفكير .

فالرجل يسأل : « ما هو التواضع إلا أن يكون  
ذلة مزيفة يلتمس بها المرء غفراناً لفضائله ومزايه في عالم  
مكظوظ بالحسد والضعينة ؟ »

ومولاي قد تلفع بالتواضع كثيراً لاتقاء الشر  
والملاحاة ، وخلع التواضع كثيراً في قصائد الفخر والمباهاة ،  
وشغلته هذه المسألة من حيث شغلت صاحبه في جانبي  
الاقرار والانكار ....



قال أبو العلاء : ان هذا لعجيب ، وان الرجل إلى  
لجد قريب ، وما أحسبها إلا قرابة في الطباع لا قرابة  
في الرأى والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذى يوحى  
القول الواحد إلى أفواه الكثيرين ، أما المتشابهون فى  
العقول فقاما يتفقون ، وقد يتنابدون ، لأنهم متشابهون !!...





حکیم و حکیمه

كان أبو العلاء قد أقام في بلاد الأنجليز بضعة أيام ،  
شهد في خلالها مجامع العلم والأدب ومعاهد الفن  
والرواية ، وسمع الكثير من أبناء السياسة العالمية ،  
وأبناء الأزمة التي أخرجت وزير الشؤون الخارجية ،  
وأعجبه نمط الحكم وانتظام الأمور بين الحكام والرعايا ،  
فجلس يحاور تلميذه وتلميذه يحاوره ، ويأبى التلميذ إلا  
أن البرلمان هو أساس هذا النظام وسبب هذا الاعتدال  
في تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم إلا أن الأمة التي  
تنجب البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان ، فلو لم  
يكن فيها نواب وناخبون ، لكان فيها الحكم كما ينبغي



أن يكون ، لأنها هي المرجع وهي الأساس ، وكل ما عدا ذلك فهو صور وأشكال ، يأخذها أناس وينبذها أناس .

قال التلميذ : بل الرأي هنا للكثرة من سواد الأمة ، وما على الحكام إلا أن يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأى ؟ ان الله يقول : « ولكن أكثرهم لا يعقلون » ويقول : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

قال التلميذ . ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » قال أبو العلاء : ونسيت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا أهل الذكر » ويقول « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

قال التلميذ : فإذا يسمى الشيخ هذه الحكومة  
التي يسمونها هنا بالحكومة النيابية ؟

قال الحكيم : أسماها الحكومة النيابية واختلف  
ما شئت في معنى النيابة وفيمن ينوب وفيمن ينيب .  
فالرأى لأهل الرأى والحكم لأولى الحكم ، والطاعة لمن  
يستطيعونها ، ولا مشقة في الطاعة على سواد الناس إذا  
صلحت الأحوال وتقابلت الأهواء ، فلا غلبة من هنا  
ولا هزيمة من هناك ، ولا يأس من تبدل الأمور كلما  
اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكاية فريق .

قال التلميذ : أكاد يا مولاي أن أتابعك في قولك  
وإن كنت تنظر إلى زمان غير زمانك ، فالحق اننا هنا  
بين أمة توازنت جوانبها فقل فيها الجور وكثر فيها  
الاعتدال : ان طغي النبلاء صمد لهم كبار التجار ، وإن  
تجبر العلية أو تمرد السفلة صمد لهم أوساط الناس ، وأن



تحكم رجال الدين قابلهم رجل العلم ، وإن صال الجند والقادة في البر فهناك الجند والقادة في البحار : تقابل وتوازن لا يطنى فيه جانب على جانب ، ولا فضل فيه لتدبير فئة على فئة ، وإنما هو من صنع الجغرافيا ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة ، وما داموا على هذا فهم في صلاح دائم ، وأخشى أنهم لا يدومون .

وان التلميذ ليوشك أن يمضى فى مقاله إذا بحاجب الباب يحمل اليه رسالة من وزير الشؤون الخارجية المستقيل ، وإذا بالوزير يطلب الاذن فى مقابلة الحكيم ، وإذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل وهو فى أزمات محرجات لا يفرغ فيها السياسة للأدب والأدباء ولا للشعر والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض ما يعلم من شأن ذلك الوزير ، ومن شؤون سائر الوزراء فى تلك البلاد .

قال التلميذ فيما قال : انه يا مولاي يعرف اللغة  
الفارسية .

قال أبو العلاء : ولكني لا أعرفها .

قال التلميذ : أعلم ذلك ، ولكنه يا مولاي قد  
اطلع على شعر حكيم الفرس الخيام ويعنيه أن يلتقي حكيم  
العرب أبا العلاء ، وهو فيما يحسبه بعض أدباء الغرب  
أستاذ الشاعر الفارسي ، وفتح هذا الطريق في آداب  
المشرقين .

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هذا البلد من  
يعنى بهذه المطالب ؟

قال التلميذ : غير قليل . فمنهم من يكتب في  
الحكمة والعلوم ، ومنهم من يكتب في نظام الشعوب  
وتدبير الممالك ، ومنهم من يكتب في الخطابة والتاريخ ،  
ومنهم من يكتب في الطير والسماك ، ومنهم من يكتب



في مشاهد الطبيعة ومحاسن الفنون ، ومنهم من ينقد أهل الفن والأدب فيتفق له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وفرسان هذا الميدان كما يقولون :  
أيذكر مولاي تلك الروايات التي شهدناها في معاهد التمثيل فأعجب الأستاذ ببعضها وسأل عن كاتبها ؟

قال المعري : تعني الرجل المسمى «برناردشو»

قال التلميذ : اياه أعني

فعاد المعري سأل : وما شأنه في هذا السياق ؟ أهو

وزير من أولئك الوزراء ؟

فأجابه التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه

عشرات من الأدباء ، فلا أذكر أن واحداً منهم أصاب في

نقده ما أصاب الوزير الذي قال في شخوص رواياته :

« أنها تظهر في الحياة لما تقول لا لما تعمل أو تكون ،

ومع هذا هي صالحة للحياة »

قال أبو العلاء : صدقت يا بني فما أعرف لذلك  
الكاتب المقوال صفة أوجز ولا أصدق من هذه الصفة...  
فمن يكون الوزير القائل هذا؟ أهو زائرنا اليوم؟

قال السليمان : ذاك يدعى شرشل وزائرنا يدعى  
أيدن ، وكلاهما في ميدان الأدب ومناصب الحكم سواء ،  
وإن كان هذا أدنى إلى المسألة وذاك أدنى إلى الصرامة  
والنضال .

فأطرق المعري هنيئة ثم أدار وجهه إلى تلميذه وقد  
اطمأن إلى حديثه ، وقال له « ما أحسب اشتغالهم بهذه  
المطالب إلا من الخير . فان التفرغ للحكم — بل لعمل  
واحد كائنا ما كان — سبيل إلى العنت وضيق النظر  
وقلة الساحة ، ومن تعددت مطالبه كان خليقاً أن يتسع  
أفقه للخصومة والخلاف ، وأن يعود وهو أدنى إلى  
المودة والانصاف



ثم هتف بالتاميز : لقد أطلنا على الرجل لحظات  
الانتظار ، فأسرع ! أسرع إليه بالدعوة ، وبالاعتذار .

ويطول سرد الحديث الذي جرى بين الحكيم  
والوزير ، فحسبنا منه ما استطرد إلى السياسة وتديير  
الشعوب . فقد أفاض الرجلان في مقاصد القول حتى  
استنفدا منها كل ما يخوضان فيه ويشاركان في مناقبه ،  
وإنهما ليهمان بالافتراق إذ يقم التاميز سؤالا كان من  
حقه أن يسأل لولا أن شغل عنه المتحدثان بأفانين الأدب  
والثقافة ، ولعل التاميز قد عز عليه أن يرى في سياسة العصر  
رأيا لا يقره عليه شيخه وأستاذه فاندفع يقول :

ألا يسأل مولاي زائرنا الكريم فيما طرقناه من  
حديث الحكومة والبرلمان ؟ فما ينبئنا مثل خير !  
ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز  
الأمر للوزير وأنصت يترقب منه الجواب

قال الوزير : سر التوفيق في حكومة هذه الأمة أن  
يتم فيها الأمر الجليل كما يتم الأمر الصغير وليس فيها  
من يعتقد أنه يريد كل الارادة أو ياباه كل الالباء ، وانهم  
قد أحسنوا الخسومة في اللعب فأحسنوا الخسومة في  
الجد ، فالغالب منهم والمغلوب في رياضة لا توغر الصدور  
ولا تحفظ القلوب



خليفة راني

قضى المعري أياماً في البلاد الإنجليزية وهو يستمع  
إلى الأنباء التي تفيض بها الصحف رثاءً لشاعر الطليان  
« جبريل دنزيو » وتمقيماً على أدبه ومغامراته في الحب  
والحرب والسياسة . فسأل صاحبه : من يكون الرجل  
الذي يغطون به هذا اللفظ في بلاد ايس بينها وبين  
بلادهم صفاء ، ويوشك أن يستعر بينهما لهيب الجفاء  
والبغضاء ؟

قال صاحبه : هو خليفة دانتى !

قال المعري : الآن زدتنى به معرفة ! ومن دانتى

يرحمك الله ؟



فثاب التاميز إلى نفسه وهو يعتذر من فلتات  
وهمه ! فقد طالما اقترنت اسم المعري واسم دانتى في  
قراآته حتى حسب أنهما متعارفان ، وأن المعري لا يجهل  
اسم قريته ولا يغيب عنه أثره وتاريخه ، فقال :

حسبتك يامولاي تعرفه وتعرف الصلة بينك  
وبينه ، فقد زعم بعض الأدباء من أبناء الأندلس المحدثين  
أنه تاميزك وأنه اقتبس منك روايته المقدسة ، لما بينها  
وبين رسالة الغفران من المشابهة . فهي رحلة بين  
الأرض والفرديوس والجحيم ، ومقابلة للأدباء وذوي  
الشهرة من الصالحين والفاوین ، وحكاية لما يصنعون في  
الدار الآخرة قياسا على ما كانوا يصنعون في الدار العاجلة  
وقد سبقنى الوهم حتى كدت أسألك : أصحيح أنه أخذ  
منك تلك الرواية ؟ وإنما الوجه أن أسأل « دانتى » لو  
لقيته كما لقيتك ، فهو أقن بجواب ذلك السؤال

قال المعري : وماذا فعل خليفته ؟ أتراه كتب  
رسالة أخرى على نمط رسالة الغفران ؟

قال التلميذ : كلا يمولاي وإنما يسمونه خليفة  
« دانتى » لأنه أشهر شعراء الطليان فى العالم الحديث  
كما كان دانتى أشعرهم فى زمانه ، أما مادة الأدب فلا  
مشابهة بينهما فيها ولا مقاربة ، بل لعلهما أقرب  
إلى المناقضة والمباينة فى كثير من الأقوال والنزعات  
والأخلاق

واسترسل التلميذ فى شرحه وهو لا يحسب إلا  
أن الحكيم مسترسل فى صمته ليستزيده من الشرح  
والتفصيل ، فجعل يقول : لقد كان دانتى عُذرياً فى هواه  
متديناً فى شعره ، صارماً فى حياته . أما خليفته فذهب  
فى الحب إشباع الشهوات واستنفاد متعة الحياة ، ومذهبه



في الدين مذهب أهل العصر من الشك والاباحة ،  
 ومسجيته أقرب إلى العريضة منها إلى الصرامة وإلى  
 الضحك الثائر أقرب منها إلى العبوس الرصين ، وكان  
 ذاتي أخرى بالحظوة عند النساء ولكنه لم يحظ منهن  
 بطائل . أما خليفته فهو بين الصلح والقهاء ولكنه  
 مجدود عند الشواذ من بنات الفن ورائدات الغرائب  
 والبدوات . . . على أنه كان من الشهوانين بالأعصاب  
 ولم يكن من الشهوانين باللحم والجسم ، وكانت لذاته  
 رعدة تهز الاوصال ولم تكن أكلة يملأ بها ماضغيه  
 ويحشوها أحشائه ، فهي وليدة القلق والحركة وليست  
 وليدة الترف والاستنامة ، وكأنها قد أصبحت بذلك في  
 زعمه أقرب إلى الطموح والمثل الأعلى ، وأبعد من الغواية  
 والاسفاف .

فقطاعه المعري منشدًا :

جهلت أفاضى المصر أ كبر ماثمًا

بما ناله ، أم شاعر يتنزل

ألهذا يابني قد شهره وقدره ، وبهذا يابني قد

أكبروا ذكره وسيروه ؟

فأحس التاميد لهجة التأفف والاستنكار في سؤال

الحكيم المعرض عن الشهوات واللذات ، وجاراه من

حيث لا يشعر قائلًا :

بل لعلمهم قد شهره لمغامراته في الحرب والسياسة

كما شهره بمغامراته في الحب والغواية

قال المعري : وماذاك ؟

قال التلميذ : إنه كان من أهل بلد صغير فصلوه

من موطنه الكبير ، فلما كانت الحرب التي يسمونها

بالحرب العظمى طمع في رجعة ذلك البلد وسعى إلى



الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث  
دون ما طمع فيه وسعى إليه ، فحمل السلاح وغزا  
ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً عليه وأبى أن يبرحه إلا وهو  
قتيل ، بل جعل يصيح على مسمع العالم كله : أنه لن  
يبرحه وهو قتيل ، لأنه أقسم ليموتن فيه وليدفنن في  
ترابه ، بل أقسم ليكون هناك نصيراً لكل من أضاع  
وطناً أو غصب على وطن ، ونادى بدعوته فاذا هي كما  
قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدّها تقمة على خسة  
العالم الشائخ وهتره وتخريفه في هذه الأيام ، لأنها  
تمتد من إيرلندة إلى مصر ، ومن مصر إلى روسيا  
فأمريكا ومن رومانيا إلى الهند ، تجمع الشعوب البيضاء  
والشعوب ذات الألوان ، وتصلح بين وحى الانجيل  
ووحى القرآن ، وتمشى بالوائام بين أتباع عيسى وأتباع  
محمد ، وتمزج في إرادة واحدة كل ما وسعته الأمم في

نخاعها وفي عروقها من ملح وحديد لامداد النفوس  
 بغذاء العمل والحركة . وسنتنصر لامحالة ! وسينضوى  
 الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم إلى  
 أعلامنا ، وسينتضى العزل المظالمون سلاحنا ، وسندفع  
 العنف بالعنف والشدة بالشدة ، ونشنها غارة جديدة  
 كغارة الصليبيين لنصرة المساكين وإغاثة الامم الفقيرة  
 المنزوفة ، ونرسلها شعواء على المرابين والمبتزين الذين  
 غنموا بالأمس أسلاب الحروب ويغنمون اليوم أسلاب  
 السلام »

قال المعري : أضغاث أحلام ، وشطحات أوهام ...  
 ثم ماذا كان من شأنه في ذلك البلد ، وماذا كان من شأنه  
 مع المظلومين والمستضعفين ؟

فابتسم التاميد وقال : هو ما تقول أيها الحكيم . فما  
 هي إلا أضغاث أحلام وشطحات أوهام ، وما هو إلا



أب تبدل الوزراء في حكومة بلاده حتى خرج حيا من البلد الذي أقسم ليموتن فيه وليدفنن في ترابه ، وما كان قد دخله من قبل إلا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فلم يمنعوه ولم يقفوا في طريقه .

فابتسم الحكيم ابتسامته المريرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل عنه قبل الافضاء به اليه :  
والمساكين المستضعفين ؟

فققه التاميد ناسياً أدبه ووقار شيخه ، وقال : أما المساكين المستضعفون فقد جردت عليهم حكومته جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفاً . . .

فتعجل الشيخ سائلاً ؟ فاذا صنع خليفة دانتى وخليفتى يرحمك الله ؟ هل أعطاهم من سلاحه ما ينتضونه ؟

قال التاميز : بل أرسل عليهم شواظا من شعره  
يخص به الجيش الزاحف على حسن البلاء وتشديد  
النكير .

فوجه المعري مهموما ولم يزد على أن قال :  
صدق الله العظيم « يقولون مالا يفعلون » .



# لعاب العبقريّة

كان أبو العلاء في أيامه الأخيرة بين أمم الغرب  
كثير السأمة من لقاء الناس ، كثير النفور من المجمع  
والمحافل ، كثير الاعراض عن الجدل في المذاهب والآراء  
والفلسفات التي سمع من أخبارها في أيام ما لم يسمعه في  
أعوام — يوم كان بقيد الحياة

« ما النحو؟ ما الشعر؟ ما الكلام؟ » كما قال في

بعض أبياته<sup>(١)</sup> ... كلها ككل شيء في هذه الدنيا

تعب غير نافع واجتهاد

لا يؤدي إلى غناء اجتهاد

---

(١) من أبيات يقول فيها :

أف لما نحن فيه من عنت فكلنا في تحيل ودلس<sup>٥</sup>  
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما مرقش والمسيب بن علس؟



وكانت للأمر في أول عهده بالقوم جدّة وغرابة  
فكان يحتمل الجامع والمحافل ما بقيت الجدّة والغرابة  
ثم نصلت الطلاوة وزالت الغشاوة فإذا الجديّد كالقديم  
وإذا العجم كالعرب ، وإذا الدنيا هي الدنيا والناس هم  
الناس والحياة هي الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم  
خروج على غير طائل ، أو على ضجّة ما كان أغنى عنها  
تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت بعد أن  
حجبت الأقدار عينيه عن الضياء

قال يوما لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بنية  
مطمورة في القدم فكأما غاص الانسان فيها كان  
أدنى إلى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت في هذا العصر  
الحديث حسبتها منجما مقبلا كما أمعن الانسان في غده  
بعد يومه كان أدنى إلى تلك الحقائق والأسرار ...  
فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها؟

قال أحسبها متاهة مغلقة ، فكما رجعت فيها  
أوتقدمت فأنت في مكان واحد من المدخل أو من  
المخرج ، وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك

وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشئين  
على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فأما لحضور وإما  
لاعتذار ، وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة  
والأديان ، ينتظر أصحابها الاجابة من حكيم العرب  
وحكيم القرون الوسطى ، فماذا يجيب والحكيم لا يريد  
الحضور ولا يريد الاعتذار؟

تلك فرصة سانحة يوم عرض الحكيم للعالم  
وشبهها تارة بالبنية المطمورة وتارة بالمنجم المحفور ، وتارة  
بالمتاهة المغلقة

فعاد التلميذ إلى المفاتحة في أمر الدعوة إلى مؤتمر



الفلسفة والأديان ، وعاد الحكيم إلى الرفض والاعراض  
 وزاد متهمكها ساخراً : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضاً فيما  
 يدينون به من عقيدة !! . . . ليوشك القوم غداً أن  
 يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من  
 فاكهة لذة !! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما  
 يشعر به من لذة وفيما يعتقد من طمأنينة اليقين إلى  
 مشاورة الآخرين ؟

فعلم التلميذ ان نوبة النفور أصلح هنا للخوض في  
 مسائل المؤتمر من نوبة الاقبال والمواقفة ، واقترح على  
 الشيخ أن يسأله وأن يدون جوابه ، وأن يستخلص من  
 الحديث ما يلقى عليه على المؤتمرين ، نائباً عن الشيخ ، والشيخ  
 معافى من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب

قال التلميذ : أنت من العقليين يا مولاي أم من

الفطريين

فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟

فلخص التلميذ مذهب العقليين ومذهب الفطريين  
في كلمات موجزات ، وقال إن العقليين يحسبون أن  
الاقناع هو سبيل الاصلاح والهداية ، والفطريين  
يحسبون أن البدهة قبل التفكير وأن الاقناع قلما  
يغالب الاهواء . . . فن أي الفريقين ياترى يكون  
الشيخ الجليل ؟

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين !

أنا من العقليين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقه

ل مشيراً في صبحه والمساء

وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسعي لنفسى في مصالحها

فما لطبع إلى الآفات جذاب



وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :  
و بصير الأقوام مثلي أعمى

فهلما في حندس تتصادم !!

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن  
المنجم المحفور ودخلنا المتاهة المغلقة يامولاي : هذا  
تناقض والحق لا يتناقض فإذا أقول للمؤتمرين من  
رأى الشيخ في حقيقة الحق بين هذه الأمور ؟

فهمت به الشيخ ضاحكا وقد سرى عنه بعض  
السامة : بل التناقض للحقائق يابني لا للأباطيل . . .

ان الأباطيل تتغير وتتبدل فيسهل التوفيق بينها  
بقليل من النقص هنا وقليل من الزيادة هناك ، أما الحقائق  
فهي التي تقف في سبيلنا وقفة الصخور . لا تحيد من  
يمين ولا من شمال ، وعلينا نحن أن نسلك بينها ونتحول  
من حولها ، فان أردت أن أتحول بك في دروبها قليلا

فاعلم إذن اننا نتبع العقل فيما هو للعقل من رأى وتفكير  
 وتجربة ومشاهدة ، وإننا نتبع الفطرة فيما هو للفطرة  
 من ذوق وطما نينة وتسليم ، وإننا لانطلب من الفطرة  
 أن تصبح عقلا ولا من العقل أن يصبح فطرة ، وإنما  
 نستشير كليهما حيث يشير . . .

وبدا لأبي العلاء أن تلميذه المصغى اليه يستريح  
 ويستقر على ما سمع فأدر كته عارضة من لعب العبقرية  
 ولعب الطفوله الخالدة . وهل العبقرية الخالدة إلا حياة  
 متجددة ؟ وهل يلعب الطفل إلا لما يدركه من جدة الحياة  
 وإقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون إلى جانبه وهو  
 يقظان فتأبى عليه شيطنة الحياة العارمة إلا أن يوقظهم معه  
 ويعديهم بمساس من القلق الذى يشتمل عليه ، كذلك  
 العبقري لا يطيب له أن يأرق وحده والناس هادئون ...  
 فمن ثم إن شئت يقظات الأحلام والناس نيام ، وشيطنة



الخلود والفانوس سادرون في موت الجمود : قل إن شئت  
 انها جدة تلتطف جدها ، وانها حلاوة تخالط مرارتها ،  
 وليكنها - بعد كل ما يقال - لا تخلو من جانب اللعب  
 فيها وجانب الرياضة ، ولن يستحق الجدم ما ليس فيه  
 لعب ولا رياضة

بدأ ذلك لأبي العلاء فأوماً إلى تلميذه يسأله وقد  
 كف هو عن سؤاله

أراك صدقت وآمنت . فما لك لا تسأل : ومن  
 الذي يستشير العقل ؟ ومن الذي يستشير الفطرة ؟ أفي  
 الانسان شيء خارج العقل وخارج الفطرة فهو الذي  
 يكون منه السؤال ثم يكون الجواب إمامن العقل المسئول  
 أو من الفطرة المسئولة ؟؟ وما الرأي إذا كان السائل هو  
 العقل والمجيب هو الفطرة ! وما الرأي إذا كان السائل

هو الفطرة والمجيب هو العقل ؟ وما رأى إذا وقع  
الخلاف على السؤال وعلى الجواب ! ؟

وفوجيء التاميد . ولكنها مفاجأة وقعت منه  
موقع السرور والتأهب ، لأنه انتظر بعدها مزيداً من  
الاستفسار ومزيدياً من التفسير . فقال : إذن أنت  
يامولاي من الجبريين ؟ ! ولا أدري كيف فاتني الساعة  
أن أذكر ذلك وأنت القائل :

والعقل زين ولكن فوقه قدر

فماله في ابتغاء الرزق تقدير

قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب  
العبقرية : ولا تدري أيضاً كيف فاتك الساعة اني لست  
من الجبريين ولا من القدريين لأنني أنا القائل :

لا تعش مجبراً ولا قدرياً

واجتهد في توسط بين بيننا



قال التلميذ وكأنما شملته تلك العارضة التي استولت  
على أستاذه في تلك الساعة :

وهل هذه إلا الجبرية بعينها ؟ لا تريد أن تقول  
إن الانسان مجبر ولا تريد أن تقول انه مخير . ولا تفصل  
في المشكلة بل تدع الفصل فيها لعالم الغيب أو عالم  
الشهادة ... ماذا يكون الجبريون إن لم يكونوا هكذا غير  
مختارين فيما يفكرون وفيما يعتقدون ؟

فأصغى المعري وأعجبه ما سمع من تلميذه فأومأ موافقاً :  
« نعم هي الجبرية في أرجوحة ذاهبة آية . وهي خير من  
الجبرية في قيد مقيم .

قال التلميذ : —

لقد عدم التيقن في زمان

حصلنا من حجاجه على التظني

فهتف به المعري : ويحك انك لتتعبني بكلامي القديم

تعقب المذنب باقراره فهلا أغناك حفظك عن مطاردتي  
بالسؤال والاستقصاء؟

فلاحقه التلميذ قائلاً : المدى يا مولاي في هذه  
المسائل فسيح ، والتعقب لا يضير ، وخطوة واحدة إلى  
الأمام أو خطوة واحدة إلى الوراء لن تضيق النطاق ،  
ولن تقرب اللحاق

قال الشيخ مترقباً : ثم ماذا؟

قال التلميذ مجارياً : ثم علام الجزاء إذا كنا فيما نحن  
أو نسيء مجبرين مسيرين؟

قال الشيخ : إذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة  
فأحقها في الجزاء؟ وإذا كانت النفس تعمل الخير مختارة  
لأنها تؤثره وترضاه وتجد فيه الغبطة وفي غيره الندم  
والحسرة فأحقها أيضاً في الجزاء؟ فأحر بنا ألا نشغل بالنا  
بمشوبة أو عقوبة



ولتفعل النفس الجميل لأنه

خير وأحسن لا لأجل ثوابها

إن الطفل يا بني يؤجر بالدرهم لياكل الطعام وفيه  
مصلحته ونماؤه ، فإذا كبر الطفل بذل هو الدرهم وصبر  
على بذله وتحصيله لياخذ به طعامه ويشبع به نهمته  
وأوامه ، وكذلك تصغر النفس فتؤجر على خيرها الذي  
تجهله ، وتكبر النفس فتبذل هي الأجر على ما تعمل  
من خير ، وذلك هو الجميل وذلك هو الثواب

أدين برب واحد وتجنب

قبسح المساعي حين يظلم دائن

ثم أنشد :

وليس اعتقادي خلود النجو

م ولا مذهبي قدم العالم

ثم عاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقرية

المخالدة فصاح بالفتى: أسرع . أسرع يا بني إلى مؤتمر الفلسفة  
والدين ، أسرع إليهم فقد طال بهم الانتظار ، في طلب  
هذا الحوار ، الذي لا يستقر عليه قرار ، ولا يزيد به  
عدد الأبرار ، ولا ينقص به عدد الفجار  
ثم تمم بين شفتيه :

ما النحو ؟ ما الشعر ؟ ما الكلام ؟

كلام في كلام في كلام !



الاختراع

السفينة في طريقها إلى المشرق والمعري وصاحبه  
على مقدمها يستقبلان الهواء ، والمذيع يعنى الأنشودة  
المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية

« عندما تضمنى بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمة التي  
ستقولها . . ستقول إنى أحبك ! وهي كلمة كاذبة  
ولا شك . . . ولكنى مع هذا أحب أن أسمع  
صوتك ! »

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟  
والتاميد يترجم الأنشودة ويتخايل في سؤال الشيخ  
عن رأيه في هذه المناجاة العصرية ، على لسان امرأة



تخاطب رجلاً ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال  
والشيخ يتأمل باسمًا ويحيب تاميذه راضياً رضى  
القائطين المستسلمين :

« هو الغرب كله يابنى مائل فى هذه الأنشودة  
اللاهية : هو الغرب الذى يأخذ من الحياة ما تعطيه  
ويطلب السرور ثم لا يسوم دنياه طلب الوفاء والكمال ...  
هو الغرب الذى يأخذ كل شيء بقيمته وكل شيء على  
حقيقته ، ثم يصقله ويحبيه إلى نفسه ليسغه ويستمرىء  
مذاقه ، هو الغرب ذو النفس الناطقة التى لا تقول كلمة  
فى جدها ولا لهوها إلا جمعت فيها خلاصة ما عندها من  
حضارة وأخلاق وفلسفة وشعور . . . »

قال التاميد :

أو ليست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل  
نفس عن دخيلتها فى غنائها ومناجاتها ؟

قال الشيخ : بلى ، ولكن شتان تعبير اللسان الذي  
يقول فيجمع حياته فيما يقول ، وتعبير التمرة التي ترى  
قشرتها فتري من لونها وتشم من رائحتها أنها ناضرة أو  
ذاوية ، وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبير الفضل كله  
فيه للقائل ، وهو — ذا تعبير الفضل كله فيه للناظر ،  
وكلاهما تعبير ولكن المسافة بينهما كالمسافة بين الحياة  
والجمود ، والحركة والركود »

فصاح التلميذ : اليوم سيدي الشيخ غربي وهو يفارق  
الغرب إلى الشرق ! ! فهلا كان غريباً وهو في بلاد  
القوم مستريح ؟ أم كتب على الانسان أن يحب ما يفارق  
ولا يزال ساخطاً على ما هو فيه ؟

فصمت الشيخ هنيئاً ثم راح يمضغ بين شفثيه

ياماء دجلة ما أراك تلذلي

شوقاً كما معره النعمان



اطمئن يا بني . ما أنا إلى الغرب ولا أنا إلى الشرق .  
أنا إلى معرفة النعمان فهلا آن الأوان ؟

فأراد التلميذ أن يطاوله ويصرفه عما ورد على  
نفسه في تلك اللحظة من الحنين إلى وطنه ، وعاد يحاوره  
وكانما يتحدثاه ليستشيريه ويخبره غاشية السوداء التي هو  
مقبل عليها :

أفي المعرفة مثل هذه السفينة ومثل هذا المذيع  
ومثل هذا الصوت الجميل ومثل هذه الأعاجيب ؟

وكان المعري قد ركب السفائن والطائرات ،  
وعرف مطايا الكهرباء ومطايا البخار ، وقال في كل  
منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . إلا أنها  
رحلة العودة ففيها خلاصة المقال ونهاية المآل ، فيما رأى  
من هذه الصنوف ولا إشكال ، فقال :

وما حاجة المعرفة إلى سفائن البحار ؟ فيها السيارة

وتحوم على فضاؤها الطيارة ، ولو كان فيها بحر لكان  
فيها مثل هذه السفينة ومثل هذه الضوضاء

قال التلميذ: وكلها من صنع الغرب الذي ما أدرى  
أيبرم به الأستاذ أم هو مشوق إليه ؟

قال المعري : الآن فهمت ماتريد... فهلا أنبأتني  
يا بني ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كنا نعيش  
حياتنا الدنيا في المعرة ؟ لعمرك يا بني ما صنعوها اليوم  
إلا لأنهم قد احتاجوا إليها ، وإلا لأنهم قد بنوا على  
أساس ما سبقها وهياً الأسباب لها من صناعات القرون  
الأولى . يا بني ! لا تهولنك المظاهر ولا تعجبك كثرة  
الأعداد . فلعل مبتدع الشراع والدولاب أحذق من  
مبتدع البخار والكهرباء ، ولعل القوس والسهم أبرع  
في اختراعهما من المدفع والقذيفة ، ولعلمهم كانوا يعيشون  
على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلمهم كانوا



يموتون على عهد القسي والسهم أكرم من هذه  
الميتة! ولعل متعة الحالم بالطيران أحب إليه من متعة  
الطائر بالجثمان

قال التلميذ: ولا أحسبني مع هذا مخطئاً إذا قلت  
إنني لمحت دلائل الدهشة على وجه الأستاذ يوم ركبنا  
الهواء أول ماركبناه

قال أبو العلاء: تلك دهشة تغني عن دهشات  
فسأله التلميذ: أيحب مولاي أن أفهم من هذا أن  
الكهرباء والبخار وما صنع الانسان منهما لا تستحق  
دهشة الحكيم كما يستحقها الانسان الطائر في الهواء؟

قال أبو العلاء: لا أحب أن تفهم هـذا ولا  
أكرهه، ولكنني دهشت لمعنى مارأيت حين رأيت  
أول لمحة، ثم أغناني ذلك عن دهشتي للمصنوعات المكررة  
والظواهر المختلفة... أتحسب أن من يدهش للطيران

في الهواء خليق أن يدهش إسكل متحرك بالبخار  
والكهرباء ؟ أفمن شهد الشراع مرة خليق أن يدهش  
له مرات كلما حركته ريح شمال أو ريح جنوب ؟ ذلك  
معنى واحد في ألفاظ شتى ، أو ذلك جسد واحد في  
مختلف الثياب ، وحسبك أن تعلم أن تسخير القوى  
التي يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لتزول عنك  
الدهشة عن كل ما يستطاع من هذا الطراز

فاندفع التلميذ سائلاً : أفكل هذه الآلات اذن ليست  
بالفتح الجديد ؟ أليس فيها ما يستوقف الحكماء من تاريخ  
بنى الانسان فيما يرى سيدى الأستاذ ؟

فلم يمهله أبو العلاء هنيهة دون أن أجاب :

« لا فتح ولا افعال ! »

« وربما فتحت هذه الآلات لانسانك يا بنى فتحاً



جديداً لو أنه سخر الآلات ثم أطلق نفسه من العقال ،  
 أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك آلات الأرض والهواء ...  
 وليكنه سخر الآلات المصنوعة ليصبح شبيهاً بها ، ثم  
 ازداد في التسخير ليزداد في الشبه . فهو أسير ما صنع  
 ورهين ما ابتدع ، فان سميت هذا فتحاً فالله يفتح  
 عليك ...

ولم تخف لدعة السخر والمرارة في كلمة الشيخ  
 الأخيرة على فطنة تلميذه الملحاح فقال وهو لا يعتمد  
 الاطالة في الحوار :

أخال انسان اليوم على جميع حالاته أطلق من  
 آباءنا الأولين !

فتمتم أبو العلاء هامساً : أكذاك ؟  
 ثم انتهى يقول : لأمر ما كان الأوائل يروضون

الحيوان وكنتم في زمانكم هذا تروضون الجماد : كل  
 قريب إلى ما يروض ! وما أحسبكم تفاجون في رياضة  
 حيوان واحد بعد الذي راضه آباؤكم المتقدمون ،  
 ولكنكم كلما قاربتهم الآلات خرجتم من رياضتها في  
 كل يوم بجديد

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغبط مولاي الجماد ويسبح الله الذي أعفاه  
 من الطعام والكساء ، ومن الرحلة والشقاء  
 ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى في  
 مجراها فقال متمنيا أو متهكما على حد سواء

لو عوفيتم كما عوفي الجماد !

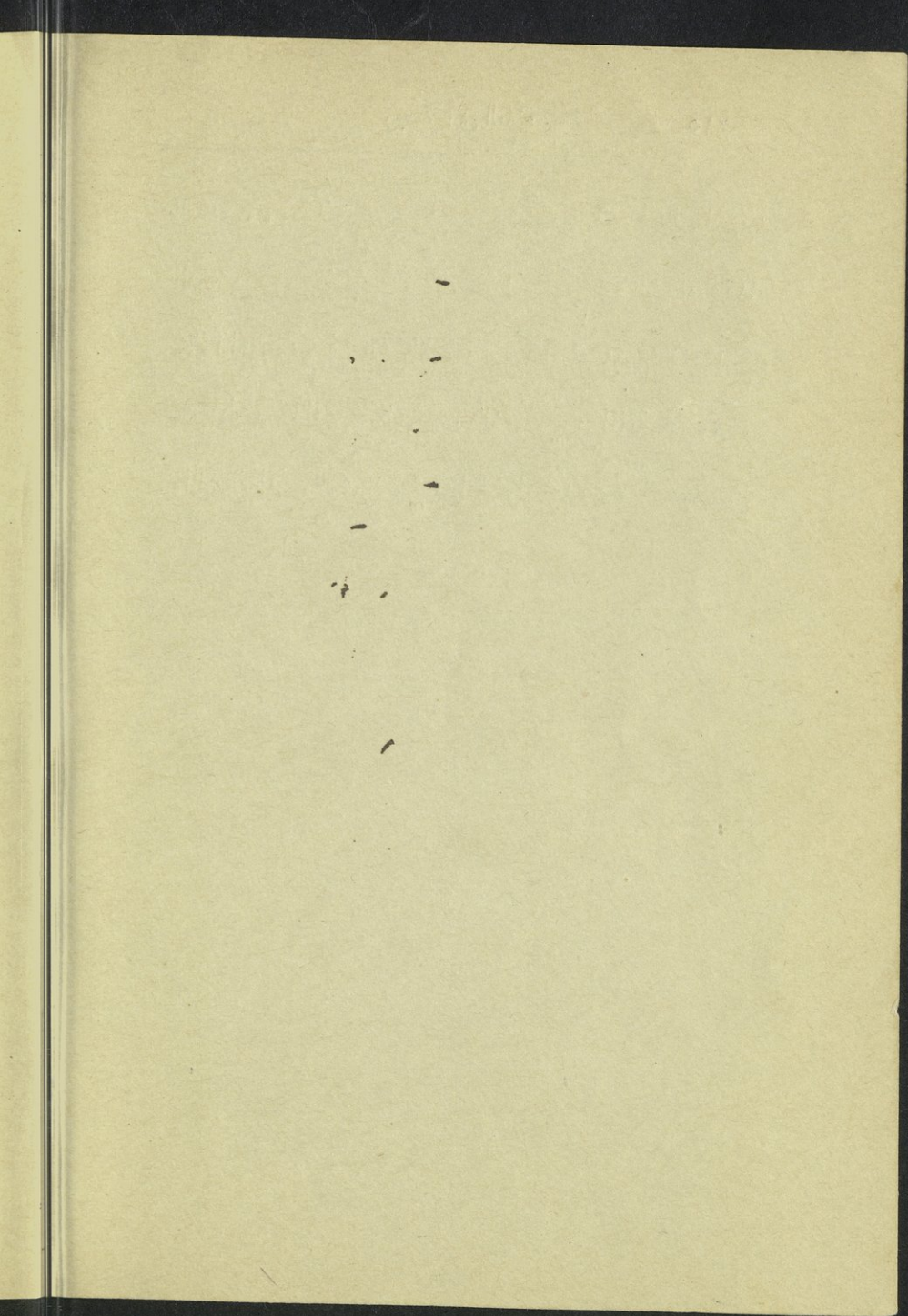
فأنس التلميذ إلى هذا التهمك الرقيق وراح يسأل :

وهل عوفي الأقدمون ؟

قال أبو العلاء : كلا . على هذا مضيتم ومضى



السلف ، إلا أنهم صبروا حيث تضجرون ، وطلبوا من  
الدنيا دون ما تطلبون ، فإذا كانوا مثلكم في الشقاء فلقد  
كانوا أقل منكم في الشكاة ، وإذا كان نصيبهم كنصيبكم  
من الخير فالذي يطلب الألف ويجد المائة محروم ،  
والذي يطلب العشرة ويجد الخمسين محدود لا تحسبه من  
أهل الحرمان





أَوْصِي الْمَقْرِبَ

## قاتل الله المجاز!

كان هـ — هذا أول ما فاه به المعري لتلميذه بعد  
أن علم سبب الكارثة التي أودت بمئات النفوس من  
ركاب السفينة ، إذ كانا يركبانها ويتحدثان فيها ذلك  
الحديث المروى في المقالة الماضية ، وكانا قد بلغا شواطئ  
الأندلس حين وقعت الواقعة . وما هي الواقعة ؟ قد يفه  
أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات الثوار فهبطت  
بها إلى القرار ، ثم نجا المعري بعصمة الخلود ، ونجا تلميذه  
ببعض الجهود ، وهما الآن على متن سفينة امر يكية تمخر  
بهما بحر الظلام إلى بلاد العم « سام »



ومال التاميد إلى الأستاذ يسأله :

أعلمت يا مولاي ما سبب الكارثة ؟

فقال الأستاذ : وما سببها ؟

قال : أنت يا مولاي !

قال : ويحك ! وكيف أكون أنا سبباً لاغراق

سفينة أنا راكب فيها ! أهى دعوة صائبة ؟

قال التاميد : بل هو مجاز خائب ... كتب بعض

الصحف ان سفينة من السفن تفارق الشواطئ الأندلسية

وعليها ذخيرة عربية نفيسة ... ومن تكون الذخيرة

العربية النفيسة غير أبي العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا

المجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة الأندلس أن

هذه الحكومة تبعت بالتحف العربية الغالية إلى بلاد

أجنبية ، لتودعها أو ترهنها هناك . فطاردتنا وأغرقتنا

لتجرمها هذه الذخيرة ، أو تستولى عليها إذا أدركتها قبل

أن تبتلعها اللجة ، فغرقت السفينة وهلك من هلك من  
جراء أبي العلاء

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذى أهلك  
القوم كما أهلك من قبلهم أمما خالية أغرقها المجاز فى بحار  
من الكلام ، وأنا مع ذلك القائل :

لا تقيد على لفظى فانى

مثل غيرى تكلمى بالمجاز !

نعم وأنا القائل أيضاً :

بنى الدهر مهلا إن ذممت فعالمكم

فانى بنفسى لا محالة أبداً

ثم قال : وإلى أين تمضى سفينتنا الآن بالذخيرة العربية

النفيسة ؟ أترانى سأغرقها مرة أخرى ؟

قال التاميد : بل إلى بر السلامة إن شاء الله ... إلى

بلاد العم سام !



قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير  
ما شهدنا أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟

قال التلميذ : كثيراً يا مولاي . . . سنرى قبل كل  
شيء ملكاً عظيماً على الطريقة الامريكية .

فتمهل أبو العلاء قليلاً ثم قال : أراني سأقضى منك  
ديون السؤال كلها في هذه الرحلة ، فما هي هذه الطريقة  
الامريكية التي نسمع بها في كل شأن من شؤون هؤلاء  
الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكاً عظيماً على  
هذه الطريقة

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبي كأنه  
موظف في الخدمة اليومية . فهذا الرجل الذي يحكم  
الدولة العظمى في الديار الامريكية قد كان مشلولاً في  
كبهولته ثم تقدم إلى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه  
لا يصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء الثقة ليشهدوا

له بصحة العقل وصحة الضمير . أما الامتحان فقد جازه  
عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية  
في الحكومة كالطرق الأمريكية في الصناعة والتجارة ،  
وفي كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟

قال أبو العلاء . وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية ما استطاع الفلاح ،

وعالج الشلل في قومه كما عالج في جسمه

فأدركه أبو العلاء متهايقاً وصاح به : غرفة أخرى

يا بني !! ومجاز آخر يوشك أن يرسل بالسفينة إلى القرار...

أفصح يا بني ودعنا من المجاز

فلستضحك التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه

عن سخرية الشيخ وارتياحه ، فطفق يقول :

لقد صعد « روزفلت » العظيم إلى كرسى الرئاسة

والأمة الأمريكية كالجسم الذي له نصف محتقن بالدم



الغزير ونصف منزوف مشلول لثقله الدم فيه ، فكان كالقلب  
الذي تنتظم به دورة الدم في جميع العروق ، وأخذ من  
النصف المحقون للنصف المشلول فدار الدم دورته في جميع  
العروق ، وأوشكت الحركة أن تعود إلى جميع الأعضاء  
قال أبو العلاء : أترأه آثار الفقراء على الأغنياء كما  
صنعوا في بعض الديار الأوربية ؟

قال التاميد : لو صنع ذلك يامولاي لكان من  
الفاشلين ، فإن هذه البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة  
الصناع بين أبنائها تعتمد من ثورة الفقراء على الأغنياء  
بشتى العواصم ، وتحتذى منها بكثير من الحصون :  
منها يامولاي إن باب الغنى مفتوح لكل فقير  
مستطيع ، فكل فقير فيها عنى نفسه بالثروة بعد حين ،  
ولا يشعر باحتكار الثروة في أيدي طائفة من الناس  
تتوارث المراتب وتتوارث الأموال ، فمن هنا يحسب الفقير  
أنه يثور على نفسه أو يثور على أمه حين يثور على الأغنياء

ومنها أن الأمريكيين قوم ورثوا المغامرة والمراهنة  
من أجدادهم الأولين الذين غامروا بالهجرة إلى المغرب  
المجهول منذ قرون ، فمن شغفهم بالمغامرة والمراهنة  
أنهم يحبون الانتخاب وينتظرون السباق فيه بين  
الأحزاب ، ولا يلجأون من أجل ذلك إلى الأضراب  
والاغتصاب

ومنها أن الزراعة عندهم توازن الصناعة ، وأن  
الريف بينهم يوازن المدينة ، وان ازدحام الحواضر لا يخلى  
القرى من الحارثين الحاصدين ، وهوؤلاء أقرب إلى جانب  
الاستقرار منهم إلى جانب الثورة والشوار

ومنها أن حب الدين فيهم قديم ؛ لأن آباءهم  
الأولين كانوا أناساً متنطسين متطهرين تقموا معيشة  
الفساد في أوربا فهجروها إلى الغرب متعقفين متورعين



وإنما يثور الانسان على الأرزاق حين يثور على  
الأقدار.

قال أبو العلاء: أرحمتي من الأستاذية في هـ— هذه  
الرحلة المباركة أراحك الله . غير أنى أراك قد ذكرت  
لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء  
ولم تذكر لنا ما صنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول ...  
أترأه رجع فيه إلى الأطباء؟

قال التلميذ: عفواً مولاي . أحسبها غلطة من  
غلطات الحداثة في الأستاذية، أو أحسبها أسلوباً مبتكراً  
على الطريقة الامريكية، ومن كان أستاذاً لأبي العلاء  
فغفقر له ما شاء من إمهال وإبطاء

فاعلم يا مولاي إذن أنه أجزل من الأجرة والوقت  
للصانعين، وأكثر من الأرزاق للشيوخ والعاطلين،  
فأكثرنا من الانفاق وراجت بهم الأسواق

فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمال ؟

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ،

وبعضه من الضرائب على رعوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلا : وكيف رضوا بما فرض

عليهم ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، فان

كثرة البيع والشراء خير من كساد السلع والخوف الدائم

من ثورة العاطلين والمطرودين ، والمال الذي يذهب

ويعود خير من المال الذي يفسده الركود

فسأل أبو العلاء مرة أخرى : وهب التجار لم

يخرجوا من بضائعهم إلا بمقدار ، فأمنوا بذلك مغبة

البوار ، وقفنوا باعتدال الأسعار . فهل وزن الأرض

غلاتها ؟ وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟

قال التلميذ يقرض أستاذه العجيب : ما أعجيبك



يامولاي من أستاذ وما أعجبك من تلميذ . أنك لتحسن  
السؤال كما تحسن الجواب . فاعلم إذن يا مولاي أن  
الأرض قد أخرجت ماشاءت وأن الحكومة قد أتلفت  
منه ماشاءت ، وهو النصف من جميع الغلات

قال أبو العلاء : وهل رضى الزارعون ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، ثم

حمدوا المغبة بعد حين

وانطلقت السفينة في عباها وأبو العلاء يقول

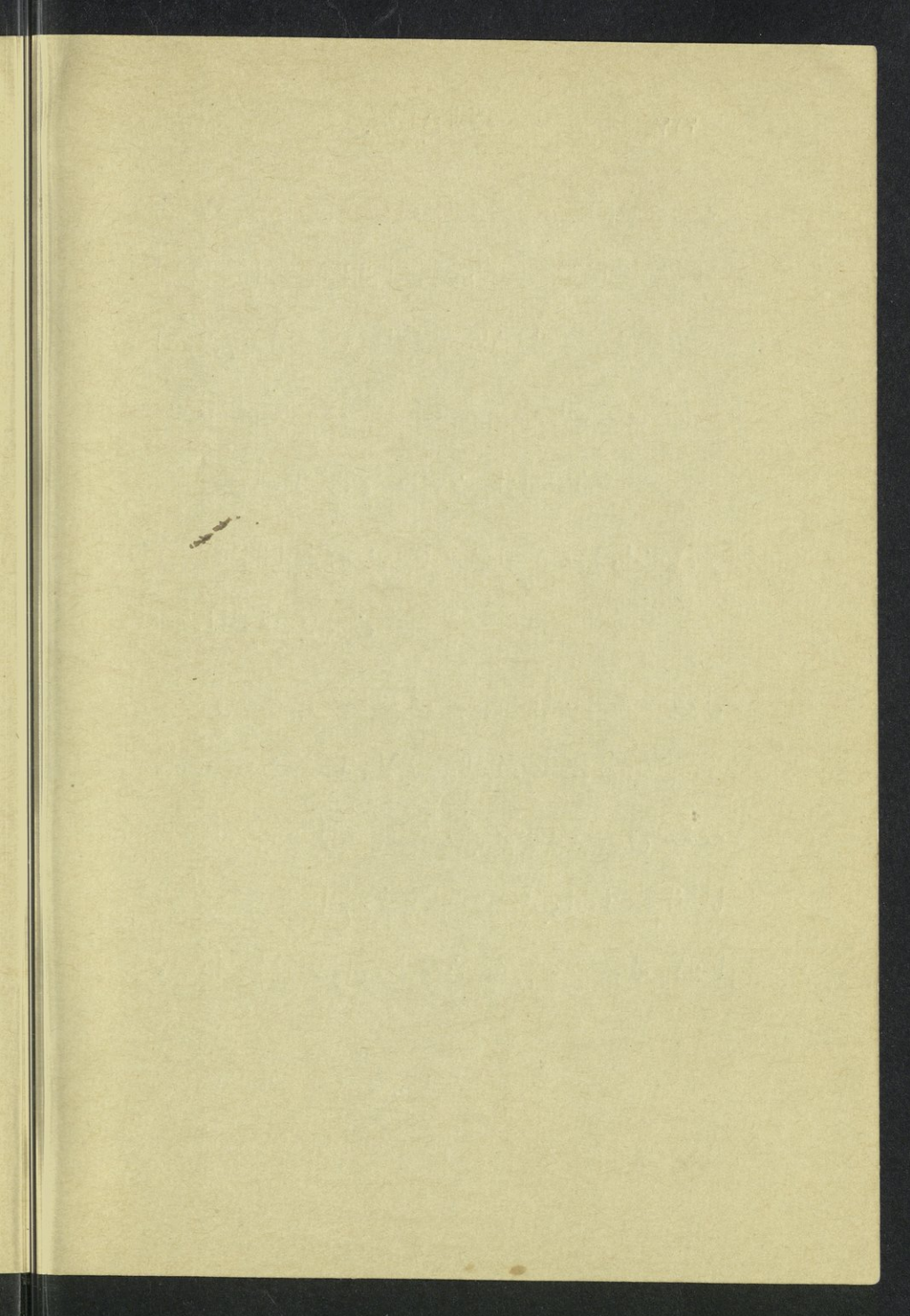
وكانه يحدث نفسه ولا يعنى تلميذه بما يقول :

لئن نجح الرجل نصف نجاح لقد نجح في حقيقة

الأمر كل النجاح ، فما من الصواب أن نسوم انسانا

واحداً كل الصواب ، وأن نمضى من حوله كلنا

مخطئين .





أَقْصَى الْمَشْرِقِ

قل انهم يحبون العجالة ، قل انهم يكرهون الوقت ،  
قل انهم حائرون فيما يحبون وما يكرهون . اما انهم  
يحبون المال وكفى فان من يحب المال للمال لا يتحرك  
ولا يعيش ، بل يجلس كما تجلس العجوز على القدر  
المدفونة ، أو كما يجلس الصيرفي على خزانة الذهب ،  
وهؤلاء لا يجلسون جلسة العجوز ولا جلسة الصيرفي ،  
ولكنهم يتحركون ويعيشون

كان ذلك حكم المعري على الأمريكين أو قل «حكم  
المعري للامريكين» وهو خارج من بلادهم ، وكان قد  
حضر مع تلميذه عيد الاستقلال في عاصمتهم ، ورأى



بدخ القوم وإسرافهم في بذل أموالهم لازجاء أوقاتهم  
والخفاوة بدكرياتهم ، فلما برحا الشواطىء الامريكية  
من أقصى المغرب واستويا على مكانهما فى السفينة  
يعرضان ماعبرا به وعبريهما ، ويجمعان ماتفرق من الوقائع  
والمشاهدات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل  
إلا للمال ، فأبى المعري أن يجارى تلميذه فى حكمه ،  
وقال عن القوم ذلك المقال

ولا ندرى لم لم يطب المقام فى بلاد الشمس المشرقة  
لرهن المحبسين كأنما كان هناك فى حبس أشد عليه من  
محبسيه .

فكان فى أرض « نيبون » يتأفف ويتبرم من كل  
شئ ومن غير شئ ، ولم يزل مع تلميذه على حذر  
وامتناع حتى هجرا أرض نيبون إلى أرض الصين ،  
وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمجاعة تازة

والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب شيء إلى راحة  
البال والاقبال على شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان  
في الصين جهداً يسر الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد  
الذي كانا يشهدانه في أرض نيبون فقل أن يكون في  
تمامه سرور للناظرين ، ولا سيما الحكماء

قال التلميذ يستفز أستاذه للكلام :

أو ليس القوم في أرض نيبون على جانب من  
الشجاعة عظيم؟ قال المعري : بلى ! إن كنت تعنى شجاعة  
الغريزة ولا تعنى شجاعة النية والارادة

قال التلميذ متجاهلاً : وما شجاعة الغريزة

وما شجاعة النية والارادة يا مولاي ؟

فأجابه الحكيم غير متأفف ولا متبرم : أن الشجاع

الحق هو من يعرف الخطر ويخشاه ثم يغلبه بعزيمة هي  
أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذي



يقتحم الخطر لأنه مدفوع إليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا فرق بينه وبين من يقتحم النار مسوقاً إليها بسلسلة من الحديد ، ولا فرق بينه وبين الأسير الذي يقدمه آسروه في الطبيعة وهو لا يملك الفرار ، وقد توجد هذه الشجاعة في الحيوان كما توجد في أبناء آدم ، فهي من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود إلى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هو حسبت أنه يعني هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان

فقال المعري : ما رأيت هذه الأسراب ولا أحسبنا في حاجة إلى رؤيتها لنعرف أن الشجاعة التي

تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التي تتعلق بارادة  
 المرید، وكل من شهدنا في أرض نيبون من باقرى  
 بطونهم وباخعى أنفسهم فانما هم قالب واحد لا يختلف  
 باختلاف البيئات ولا باختلاف الأفراد، وليست هكذا  
 تكون الصفات التي مرجعها إلى مزية في الانسان ومزية  
 في الخلق والتكليف

قال التلميذ : أو ليس القوم خيراً من هؤلاء  
 الصينيين الذين ترضى عنهم ولا تضيق ذرعا بعشرتهم  
 ومراقبة أحوالهم ؟

قال المعري : أما إن أردت أنهم أفلحوا حيث أخفق  
 الصينيون فأنت على صواب، وأما إنهم يفلحون هكذا  
 لو كانت أرضهم هي أرض الصين وأحوالهم هي  
 أحوال الصينيين فذلك هو البعيد . . إن القوم قد أخذوا  
 قديمهم من الصين وأخذوا حديثهم من الغرب ووجدوا



في عزلتهم من وراء بحرهم وعلى خصاصة عيشهم متسماً  
 من الوقت يأخذون فيه ما يأخذون ويدعون ما يدعون...  
 فان أردت الانصاف فضعهم حيث وضعت الدنيا أبناء  
 الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين!

قال التاميد : يعنى الأستاذ الفرق بين المنتصرين  
 والمنهزمين ؟

قال المعري نعم : وما يدريك لعل أهل نيبون  
 يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟  
 لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعتهم الهزيمة  
 فأصبحوا أمة تنضوي إلى لواء واحد ، فإذا بالمنتصرين  
 يخافونهم بعد خمس سنوات تجردوا فيها لاتخاذ الأهبة  
 وتوحدوا أو كادوا يتوحدون ، فكيف يكون شأنهم  
 لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس  
 سنوات ، ومن ذا الذى يهزمهم فى المشرق أو فى المغرب

لوتبياً لهم الوقت كما تهباً لأعدائهم المنتصرين؟ علم الله  
لولا أن أهل نيبون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما  
عاجلهم بالعدوان، وما أخاهم مع ذلك آمنين عقبي  
الأمور.

قال التلميذ: من يسمعك يا مولاي يحسبك من  
دعاة «الكومنتاج» أو من غلاة المتشيعين لانبجيل  
«سون ياتسين»

ولو كان أبناء نيبون قد أساءوا استقبالك لزعمت أن في  
تفسك إثارة من سوء ما استقبلوك، ولكنهم جمعوا الك  
المسلمين في عاصمتهم واستمعوا لك في معبدهم ومسجدهم،  
وصحبوك وحبوك، ومللتهم ولم يملوك، فأعجب العجب  
أن تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصينيين هذه  
الألفة...

فقاطعه الحكيم قائلاً: لعلمهم أساءوا من قبل هذه

الحفاوة!



فابتدره التلميذ مستغرباً : كيف أيها الحكيم ؟

أيأبي مولاي الكرامة وهو كريم ؟ !

فأجاب المعري : نعم أباهما إذا كانت تجارة وكنت

أنا فيها سلعة من السلع المعروضة أو ذريعة من ذرائع

الترويج والخديعة ... هؤلاء الناس لم ينشئوا مسجدهم

لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأبي العلاء ، ولكنهم

أنشأوه للبيع والتجارة ، وما نحن بالسلعة الرخيصة في

أسواق التجار

فقال التلميذ متسائلاً : وحفاوة المسلمين في الصين

ما شأنها وما شأن التجارة والكرامة فيها ؟

قال أبو العلاء : تلك حفاوة قريب بقريب . وأظن

المحتفين بنا هنا قد كانوا مسلمين منذ قرون !

فصاح التلميذ : كأنما فوجيء بكلام لم يخطر له

على بال :

نظن يا مولاي ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر

المسلمين هنا ما ليس عندنا ، واننا نسمع من تاريخهم  
لديك فوق ما سمعنا !

قال : وما سمعتم ؟

قال : سمعنا حديثاً يشبه الأحاجي والأساطير . سمعنا  
أنهم دخلوا الصين قبل زمان مولاي بعهد طويل ، وإن  
قتيبة بن مسلم الباهلي قد غزا أطرافها في عهد بني أمية ،  
فكتب إليه ملك الصين أن ابعث إلى رجلا شريفاً  
يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة رجال  
لهم جمال وأسن وبأس وعقل وصلاح ، وكان منهم  
هبيبة بن مشمرج السكلاي فقال لهم : إذا دخلتم عليه  
فأعلموه أنني قد حلقت أني لا أنصرف حتى أطاء بلادهم  
وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم ،

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف  
فاني قد عرفت قلة أصحابه ، وإلا بعثت اليكم من



يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول  
 خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك  
 إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ...  
 لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أميرنا ألا ينصرف  
 حتى يطاء أرضكم ونختم ملوككم وتعطوا الجزية . قال  
 ملك الصين : فأنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا  
 فيطأه ، ونبعث إليه بعض أبنائنا فيختتمهم ونبعث إليه  
 بجزية يرضاها . ثم أجازهم وبعث بما ذكر إلى قتيبة  
 فقبل الجزية وختم الغلمان ورددهم ووطئ التراب وأنشد  
 شاعر في ذلك :

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم

للصين أن سلكوا طريق المنهج

كسروا الجفون على القذى خوف الردى

حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج

أدى رسالتك التي استدعيته  
فأتاك من حنت اليمين بمخرج  
فأصغى أبو العلاء ثم قال :  
ولا كل هذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون  
المحدثون أعلم بالزمن القديم من الأقدمين



زَعِيمُ الصَّيْنِ

جالس الشيخ في فرضة الصين الكبرى  
«شنه‌های» و إلى جانبه تلميذه يترجم له الخطاب الذي  
ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاي شيك عن السيد  
المسيح صلوات الله عليه

وكان الشيخ - وهو من المعنيين بأمر الأديان  
والمشغولين بعقائد ذوى الآراء - قد سمع أن الزعيم  
الصيني تحول عن عقيدة آباءه وأجداده مع حرص أهل  
الصين على تراث الآباء والأجداد، وآثر المسيحية كما  
آثرها من قبله أستاذه وأستاذ الصين الحديثة «سون  
ياتسين» . . . . فعجب لهذا التحول واشتاق أن يعرف



أسبابه وبواعثه من السياسة أو من خطرات الضمائر  
وبدوات النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن  
السيد المسيح أصغى إليه وقال : أسمعني ما يقول !

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب  
حبه المسيح وإيثاره عقائد النصرانية وهي : أن المسيح  
كان قائد ثورة وطنية نهض بأمته فأحياها بعد أن أماتها  
طمع الرومان وعسف الطغاة من الأمراء والسكبان ، وان  
المسيح كان قائداً لثورة الإصلاح الاجتماعية كما كان قائداً  
للدعوة النهضة السياسية ، فألقى على الفساد والمفسدين  
وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء في الخير والاستقامة ...  
وأن المسيح كان مع دعوته القومية والاجتماعية داعياً  
إلى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات  
الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين وأحبابه ، وإنه قد  
استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير في

بلد فقير ، فلم يكن وَاث القاب وأموال ، ولم يكن  
 سليل أحبار وأقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر  
 الدراسة الخاوية ولا التعليم الموقر بالنفائات والقشور .  
 بل كان صاحب قلب كبير يستوحى العناية الربانية  
 ويستلهم الفطرة السليمة ، ويروى عن صفحات الكون  
 ولا يروى ما حشيت به الأوراق وامتلات به قاطر  
 الهياكل . . . .

قال المعري : رأيت ؟

قال التاميز : ماذا أيها الحكيم !

قال إن الرجل قد دان بالسيحية لأنه قد آخى بين  
 حياته وحياة المسيح ، واعتد نفسه مسيحاً جديداً قام من  
 سلالة الفقراء ومن لا يُحسبون بين العلماء ، واختاره الله  
 لآحياء الصين بما ابتعثه فيها من ثورة قومية على الطغاة  
 والمغيرين ، ومن ثورة اجتماعية فيما سماه «الحياة الجديدة»



وأوصى فيه بالتطهر والاستقامة والفداء ، ومن ثورة  
دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ ، فهو قد آمن  
بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد أبغض الرومان  
لأنه يبغض « المانشو » واليابان وزمرة المتجرين  
بالأديان .

قال التلميذ : أو تأذن أيها الحكيم باضافة قليلة

قال المعري : أو كثيرة !

قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه

وآمن معها بزوجه

فسأله المعري : وماذا تعنى !

قال أعنى ان « شيانج كاي شك » يتم تكفلت به

أمه وأنفقت عليه من سم الخياط ومن فضل الطوى

والقناعة ، ورجت فيه الخير يوم يئس منه الأقربون

ونفضوا الأيدي من حاضره ومؤتلف أمره ، وما زال

يستمدّها العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء  
بالهزيمة وفر إلى اليابان وهو لا يملك قوت أيام . فللمرأة  
شأن أى شأن فى قلبه وعقله ، وخليق بمن كان كذلك  
ثم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن إليها ويطمئن  
إلى عطفها وخلص طويتها ، ويحسب الصلاح فى  
صلاحها ، والدين فى دينها ، والايان فى ايمانها ، فاذا  
كانت مسيحية فما أقربه مع الأيام أن يتسلل إلى الايمان  
بالمسيحية ، وإذا كانت من أسرة قديرة على المذهب  
المسيحى فما أولاه أن يعيش فى كنف الأسرة وأن  
يشعر بشعورها ! ولقد كانت لأستاذة «سونياتسين»  
زوجة مسيحية فحسن على يديها ايمانه بدينها . وما كانت  
زوجة الأستاذ العظيم إلا شقيقة زوجة المريد العظيم .  
فما أعجب هذه الأسرة التى أنجب بنتين يدين بدينهما  
زعيمان من زعماء الصين كيران ، ورجلان من رجال



العالم خطيران ، عدا من أنجبت من أبناء وبنات كلهم  
علم من أعلام هذا الجيل في هذه البلاد ؟ !

قال المعري : لا عجب إذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة  
التي توافق إيمانه بنفسه وإيمانه بزوجه وإيمانه بأستاذه ،  
وإيمانه برجاء بلاده

فعاد التاميز يسأل : وما رأى الحكيم في رجاء  
بلاده ؟

قال المعري : إن نقصت مساحات أرضها فقد تزيد  
قوة نفوسها ، وإن تقاربت مسافاتها وأطرافها فقد  
تتقارب علاقات سكانها وأواصر أبنائها ، وإن غلبوها  
بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وإن طال الزمن على رجائها  
فما هو بأطول من أزمانها في القنوط والجمود . . . هي  
ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون

قال التلميذ : تلك بشرى يفرح بها القوم إذا سمعوها

فهل من وصاة أوصيهم بها ، وهل من آفة أهدرهم عواقبها ؟  
 قال المعري : آفة القوم انهم بين الحضرة والبادية  
 فلا هم جادون في الحضارة ولا هم جادون في البداوة .  
 فليجدوا في إحداهما فذلك خير من حيرة المنبت لا أرضا  
 قطع ولا ظهراً أبقى

قال التلميذ : لكأنك يامولاي قد عشت في الصين  
 منذ عشت في الدنيا . لو رأيت بناءهم لرأيت قصوراً في  
 أشكال خيام . وذلك شأن كل « بناء » في الصين



زهدان

شتان زهد الهند وزهد نجد

ذاك زهد السامة من الوفرة والاعراق والابتدال ،

وهذا زهد الأنفة في وجه الضنك والضرورة

زهد الهند زهد الذي اكتظ من صنوف المائدة

حتى عافها وأعرض عنها

وزهد نجد زهد الذي يمر المائدة وأنف من مذلة

الحاجة إليها . . .

كان هذا حديث المعري لتلميذه وقد وصلا إلى جدة

وقفلا من مدن الحجاز ، بعد طواف طويل في الصين

والهند وفارس والعراق .



وكان التلميذ يسأل أستاذه عن شظف النجديين  
 من أتباع عبد الوهاب ، إذ يجرمون على أنفسهم كل ما يعز  
 عليهم وجوده في الصحراء النجدية . وهو ينتظر رأي  
 المعري في هذا الشظف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمثله أيام  
 الحياة .

فلما قال له المعري ان القوم في الصحراء يزهدون  
 زهد الأنفة في وجه الضرورة فهم أن حكيم المعرفة  
 يستكبر أن يساويه في زهده مئات وألوف ، وأحب أن  
 يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، أو مسوقين غير  
 سائقين ، فرجع اليه سائلاً :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج اليه ، آنفاً من  
 الاقرار بالحاجة والحرمان ؟

قال الشيخ كلا . إنما تفعل ذلك الأمم التي لها عزة  
 وليست لها وفرة . فهي إذن تفرض على نفسها القناعة

وتنفض عنها شعور المذلة ، ولو ضعفت ولانت لجمعت  
 على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل والاستكانة ، فتري  
 أنها محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخير والبذخ  
 والرفاهة ، ولا ترى كما يرى هؤلاء النجديون أنهم  
 محرومون وأنهم مع ذلك خير من المستمتعين !

قال التلميذ : لاغرو . إنني لأسمع المعري الهندي !  
 قال الشيخ : ويحك . هل عدنا إلى قديم هذه  
 الدعوى ؟ فمن ذلك المعري الذي ولد في الهند أو الهندي  
 الذي ولد في المعرة ؟

قال التلميذ : هو الذي قال :

غدوت مريض العقل والدين فالقني  
 لتسمع أنباء الأمور الصحائح  
 فلاتأكلن ما أخرج الماء ظالما  
 ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح



ولا بيض أماتٍ أرادت صريحه  
لأطفالها دون الغواني الصرائح

ولا تفجعنّ الطير وهي غوافل  
بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضرب النحل الذي بكرت له  
كواسب من أزهار نبت فوائح

فما أحرزته كي يكون لغيرها  
ولا جمعته للندي والمنائح

مسحت يدي عن كل هذا فليتنى  
أبهت لشأني قبيل شيب المسائح

بني زمني هل تعلمون سرائراً  
علمت ولكني بها غير بائح

سريتكم على غي فهلا اهتديتم  
بما خيرتكم صافيات القرائح

وصاح بكم داعي الضلال فما لكم  
 أجتتم على ما خيَّلت كل صائح  
 متى ما كشفتم عن حقائق دينكم  
 فكشفتهم عن مخزيات الفضائح  
 فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم  
 ولا تازموا الأميال سبر الجرائح  
 ويعجبني دأب الذين ترهبوا  
 سوى أكلهم كد النفوس الشحائح  
 وأطيب منهم مطعماً في حياته  
 ساعة حلال بين غاد ورائح  
 فما حبس النفس المسيح تعبداً  
 ولكن مشى في الأرض مشية سائح  
 أليس في بعض هذا ما ينسب الرجل إلى أمة الهند  
 ودين البرهمنين ؟



فجرى السخط في مجراه من قلب الشيخ الكظيم :  
 أن ينقلب هزواً كلما أوشك أن ينفجر غضباً . وقال :  
 لو صح هذا لما بقيت أمة في الأرض إلا نُسبتُ إليها .  
 ما لكم لا تصدقون انها الفاقة وانها الرحمة ؟ أبلغ من  
 سوء ظنكم بأنفسكم ألا تفرطوا في أكلة الإخوفاً من  
 غضب معبود ؟ وماذا يضيرني من برهما إن غضب  
 وما هو بصاحب نار ولا بصاحب نعيم ! ومالي ولدين  
 أناس يؤمنون بقداسة بعض الحيوان ونجاسة بعض  
 الانسان ! ذلك لا يلمسونه من هيبة ووقاية وهذا  
 لا يلمسونه من كبر وزراية ؟ ويحك ! أينسب إلى الهند  
 من يحقن الدماء ؟ فما قولكم في الحسام وهو من الهند  
 في المعادن والأسماء ؟

ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفع كل حين

ومن نفع به حمل الحسام

وليس الخير في وسع الليالي

فكيف نسومها ما لايسام؟

اننى اذن لمن اتباع صاحبكم نيتشه؟ أو من أتباع

أصحابه الفاشيين؟ وما لك لا تحسب على انكارى لزعم

الهند حين أنتقض ما يقولون:

يقولون ان الجسم ينقل روحه

إلى غيره حتى يهذبها النقل

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة

إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وأشفق التلميذ أن تكون غضبة فسكون . وقد

علم أن صاحبه أصعب ما يكون مراسا إذا سكن بعد

غضبة . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب غير



الوجوم والازدراء ، ولكنه إذا انتقل من ثورة إلى ثورة  
أو تدرج من سخرية إلى فكاهاة . ففي استطالة الحديث  
معه رجاء

قال التلميذ : أمن النسبة إلى الهند ينفر مولاى كل  
هذه النفرة ؟ فمن قال انه من الفرس كيف يجاب ؟ ومن  
زعم انه من المجوس ماذا يسمع من زجر وعقاب !  
قال المعري : يقال له صدقت وبررت ، وانه مع  
ذلك لعل دينهم لأنه يعجب منهم إذ يقول :  
عجبت لكسرى وأشياءه

وَنَغْسِلُ الْوَجْهَ بِبَوْلِ الْبَقْرِ

فمن التقية أن ينكر الانسان ما به يدين . وأن يكون  
نكرانه علامة اليقين . . . أليس كذلك ؟

وتلطف التلميذ اللبق في نقل الحديث إلى فارس  
والفرس وما كان فيه وما يكون ، وتذاكرا ما مر بهما

ومرأ به في تلك البلاد ، فسرى عن الشيخ بعض ما اعتراه  
من غضب وامتعاض لنسبته إلى البراهمة والمجوس .  
ووضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكر اذلك الكرسي  
الذي كان يجلس عليه بعض الشاهات — عند قضاء  
الحاجة — فيعزف بالنشيد الملكي تحيةً للجالس عليه !  
وقال الشيخ : حسنا صنع عاهل الفرس الجديد أعانه الله  
على ما تصدى له من خير وتهذيب . انه أراح أمته من هذه  
المراسم وهذه التفخيمات التي أفسدت عليهم ما أفسدت ،  
ونسوا كل شيء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى  
الانسان كل تفخيم وتبجيل ... ان المراسم آفة هذه الأمة  
الطيبة الرضية ، فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا شريعة  
إلا وفيها آية المراسم ظاهرة ، وتحية المراسم ناطقة ،  
ووديوان المراسم معقود ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد  
خلصوا من قيود تجبس الرأس قبل الأعضاء والأقدام



فسأل التلميذ: وماذا بقى منها فيستحب لهم  
الخلاص منه؟

قال المعري انهم يقتدون بالأمم الكبرى في ازيائها  
وشعائرها ، وان أخوف ما نخاف عليهم أن يحسبوا  
القوة والمنعة في هذه الأزياء وفي هذه الشعائر ، فيتقيدوا  
بها من جديد ويخلصوا من تقليد إلى تقليد ، ولئن هدام  
عاهلهم السديد في مسعاهم المجيد ، لقد بلغ بهم ما لم يبلغه  
الأكاسرة ولا الهرامزة الأولون

1844

1844

1844

1844

1844

1844

1844

1844



في مصر

على مقربة من سيناء قال حكيم العربية لتاميذه  
كأنما هو الذي يقوده :

هذه هي البادية !

قال التلميذ : أو قد عرفتها ؟ قال كيف لا أعرفها...  
... وأن الشمس لتتغير وما غير الله البادية منذ خلقها ،  
ولا يغيرها حتى يطويها مع الأرض أو السماء !

قال التاميد : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال  
أرض مصر ، فأيهما يؤثر الأستاذ بالزيارة

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن متاعب فلسطين  
والشرق العربي ، وسمع شيئاً عن عجائب مصر .



فانشد :

أما الحجاز فما يرجي المقام به

لأنه بالحرار الخمس محتجز

والشام فيه وقود الحرب مشتعل

يشبه القوم شدت منهم الحجز

وبالعراق وميض يستهل دما

وعارض بلقاء الشر يرتجز

ثم قال : لا أدخل أرضاً يجلي عنها العرب ، فلندخل

مصر آمين .

قال التلميذ : إن آيت أن تدخل أرضاً يجلي عنها العرب

عنها فهلا بعثت اليهم بتحية أو نصيحة !

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصابوا بالقوة

والمال من يغلبونهم بالقوة والمال .... فهم هم الظافرون ،

قصر الزمان أو طال

وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟

قال : من العزم والاباء .. من أبي ماهو فيه  
استمد العزم من إباءه ، وجاءته القوة والثروة إلى  
موطىء قدميه

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منهما جهد الطاقة  
أفيلغون منهما يامولاي مبلغ الدول الكبار ؟

فأجابه الشيخ : بل يبلغون منهما ما يتعب الدول  
الكبار ، وحسبهم أن يتعبوها فيستريحوا ، أو يرجعوا  
إلى حال خير من قبول الضياع والفناء

\*\*\*

ودخلا مصر فقضيا أياما بين ترحيب وتسلیم ،  
وبين ربوع وآثار ، وسأل الشيخ بلسان أبي الطيب  
الذي كان يتعصب له ويستعيد شواهدہ :

أين الذي الهرمان من بنيانه

ماقومه ؟ مايومه ؟ ماالمصرع ؟



ثم أنشد :

تتخلف الآثار عن أصحابها

حيناً ويدركها الفناء فتتبع

ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنهما لم يفنيا ولم يتبعنا . فما

أعظم يقين أبي الطيب بفعل الزمن ودولة الفناء

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقينا بالزمن وفعله والفناء

ودولته من القائل :

زحل أشرف الكواكب دارا

من لقاء الردى على ميعاد

ولنار المريخ من حدثان الد

هر مطف وإن علت في اتقاد !

فرد عليه الشيخ خاشعا وهو يجمع بين شفتيه :

نعم . وتهون الأعمار عند ذاك ويهون الخلود

واسترسل التلميذ في نعمته الأولى فقال : هذا

لحدّ أبي أن يصير لحداً مراراً ، وأبي أن يضحك من  
تزامم الأضداد

قال الشيخ وهو في جمجمته الأولى : لقد دخله  
الأحياء فأبى أن يكون لحداً مرة بله المرات ، وضحك  
من صاحبه الأول قبل أن يضحك من أضداده . وإني  
والله لأسأل عن هذا الطود المشيد كما سألت عن الورقاء :

أبكت تكلم الحمامة أم غن

ت على فرع غصنها المياد

فأدرى هنا أهو عنوان غلبة الموت أم عنوان غلبة  
الحياة ... إغما هو على الحالين عنوان شقاء الانسان ،  
وعبث الطغيان

وعاود الشيخ وجوهه على أشد ما يكون بين إطلال  
الفراعة ومروج وادي النيل ، وإنه ليروض نفسه على



إقامة أيام إذ حانت له الظرفة التي سماها أعجب العجائب  
في بلاد العجائب ، فاتتوى الهجرة من قريب

كان ذلك في ناحية من الصحراء وقد تردد عليه  
رجل من كتاب الصحف فسأل الشيخ تلميذه : ماذا  
عساه يريد ؟

قال التلميذ : إنه يعتذر

قال ومم الاعتذار ؟

قال : إن الرجل لكاتب المقال الذي أطلعتك عليه  
تفككه وعبرة يوم وصلنا إلى هذه الديار

قال : تعنى الرجل الذي نعى على حكومة هذا البلد  
أنها احتفلت بمن سماه أمام الملحدين وشيخ الكافرين ،  
وأنها من أجل ذلك خليقة باغضاب المسامين والمروق  
من حظيرة الدين

قال التلميذ : هو بعينه

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم؟  
قال : اعتذاره أنه سيلقى عليك المقال الذى أعده  
للإنحاء على الحكومة لو أنها قصرت فى لقاءك ،  
وأحجمت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة  
ينعون عليها كل ما تفعل ويقدمون فى كل ما تنوى ،  
فإن هى أكرمت وفادتك قالوا ما قد علمت . . . وإن  
هى قصرت فى حفاظها فهم قائلون ما استسمعه الآن

قال المعرى : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ أن هذه  
الحكومة تنكرت للعرب وآداب العرب ، وقطعت  
ما بينها وبين لغة القرآن من سبب ، وباعت نفسها  
للفرنجة ، وحادت عن سواء المحجة ، وغير ذلك مما ينتظم  
فى هذا النظام !

قال التاميد : أحسنت يامولاي . . . إنك اليوم لفى  
طليعة المرشحين للكتابة فى الصحف الحزبية ، وعلى



رأس المقدمين للخوض في غمار السياسة المصرية . . .  
 هكذا كتبوا ، وعلى هذا دأبوا ، ولهذا أقبلوا يعتذرون .  
 وفي هذه اللجاجة تنقضى عليهم الأيام والسنون

فردد المعرى قوله القديم

ما خص مصرأوبأ وحدها

بل كائن<sup>ه</sup> في كل أرض وبأ . . .

لكن هذا هو الطاعون الذي يحمد عنده

كل وباء .

إلى المعرة يابني فقد ختمنا المطاف ، وشبعنا من

المضيفين والأضياف

وكان « كاتب هذه الأسطر » في محضر الفيلسوف

فقال : إن أسوان تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق

الجنوب ، وإن طالت المسالك واختلفت الدروب

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد

بكلامه القديم ، وأجابه بيت من لزومياته يذكر فيه  
اسوان إذ يقول :

اسوان أنت لامن الركب نيتهم

اسوان . أى عذاب دون عذاب؟!

لقد زرتك فيها قبل اليوم يا بنى ، فاحتسب دعوة  
اليوم فى تلك الزيارات ، وخذلنا فى عالم الفكر من هذه  
المجاملات والمصانعات . أما دعوتى فيها وأنت يافع  
تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء اليدين بالحياة ؟  
أما دعوتى فيها وأنت فتى تثور وتحسب إننى معك  
حين تثور ؟ أما دعوتى فيها وأنت كهل تصالح الدنيا  
لأنك أنفت من مخاصمة الدنيا ؟ ! أما دعوتى فيها  
وأنت ترعم أنك تناقضنى بانكار الأحزان وما أنكرتها  
إلا ترفعاً عن الشعور بالحرمان ؟ إنك دعوتى كثيراً  
وإننى أجبتك كثيراً ، وإننى لألقاك حيث أنت خير  
لقاء ، وإنك لتلقانى وتسمعنى حين تشاء



نَسِيدِ وَدَاعِ

\* بينةٌ ضريحي طال بالصخر ابطاء

فهل وطّأوه أو تعداه ابطاء ؟

\* وهل لان أويأبي على اللين نخوةٌ ؟

وهل رقطوه أو سرت فيه رقطاع ؟

عرفت انتظار الموت . أما منيةٌ

وطول انتظار ، فهو للقصد إخطاء

« متى يتقضى الوقت والله قادر »

فتعطيني الدنيا ويحمد إغطاء<sup>(١)</sup>

---

(١) أغطاء : بمعنى غطاء



أراني لديكم كالمعري معرضاً  
 لمن شاء والركبان حولي خبطاء<sup>(١)</sup>  
 أقمتم لذكراي المآذب فاستوى  
 بمأدبة النسيان منع وإعطاء  
 وما نضجت تلك الثمار فما لكم  
 دعوتهم ولم تخرج من الزرع أشطاء<sup>(٢)</sup>  
 ذروني فلي فيكم كتاب وسيرة  
 جديدٌ صباها وهي في الدهر شمطاء  
 إذا حان يومى بينكم فهي عنديكم،  
 وعندي لكم شكر لراعيه طاء<sup>(٣)</sup>

(١) الفرس الخبطاء : التي تضرب الأرض برجلها وهو  
 من علامات المرح أو القلق  
 (٢) أخرج الزرع شطاءه : أى ظهر فيه الورق والفروع  
 (٣) أى موطأ متطامن

وهذا وداعي لازم غير لازم<sup>(١)</sup>

إذا عاب بعض الشعر عي وإيطاء<sup>(٢)</sup>

لعل أراكم بعد ألف وبينكم

أوف لهم ذكرى من الحمد عيطاء<sup>(٣)</sup>

عن المعري :

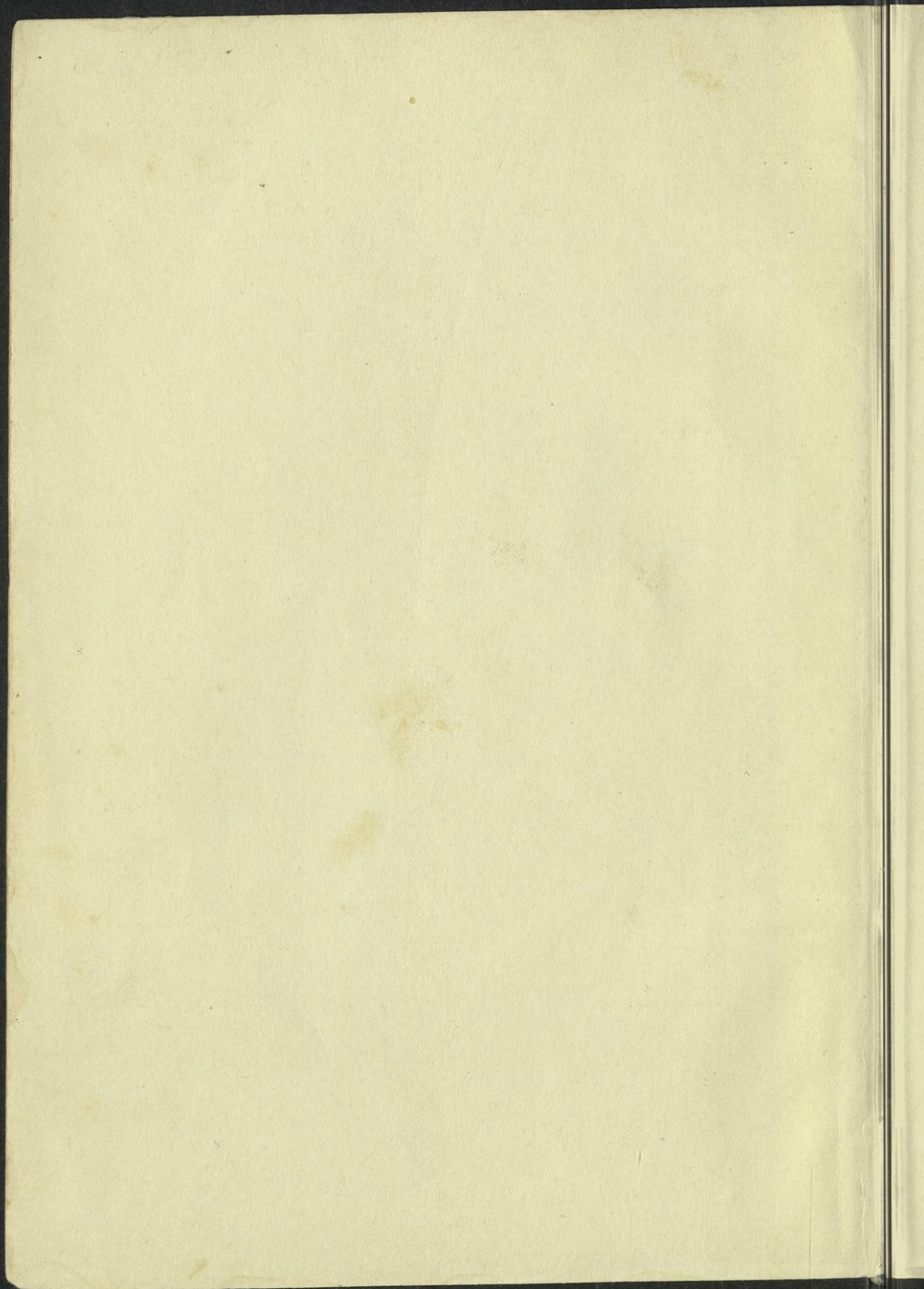
عباس محمود العقاد

(١) من لزوم مالا يلزم

(٢) تكرار القافية

(٣) طويلة الجيد



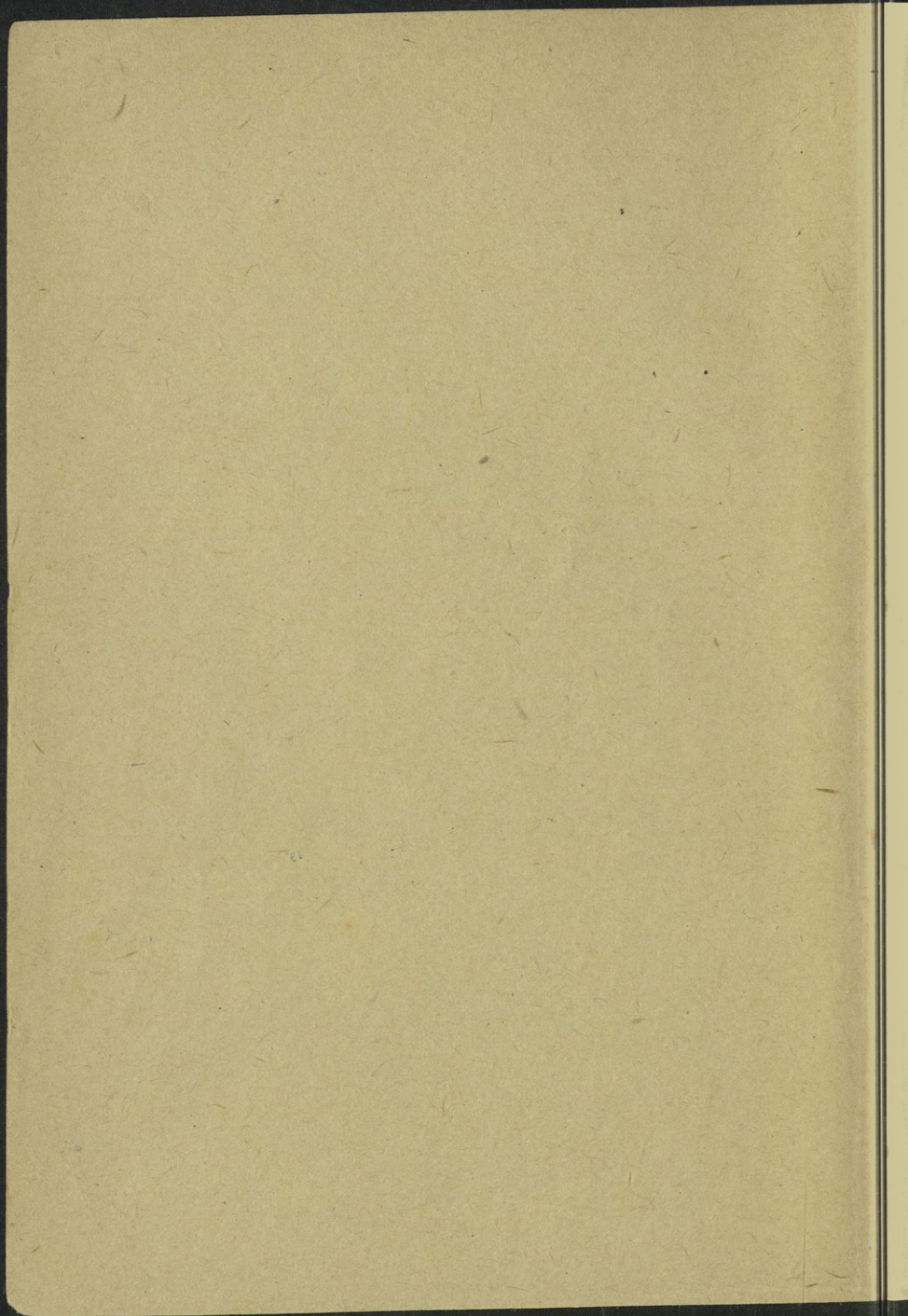


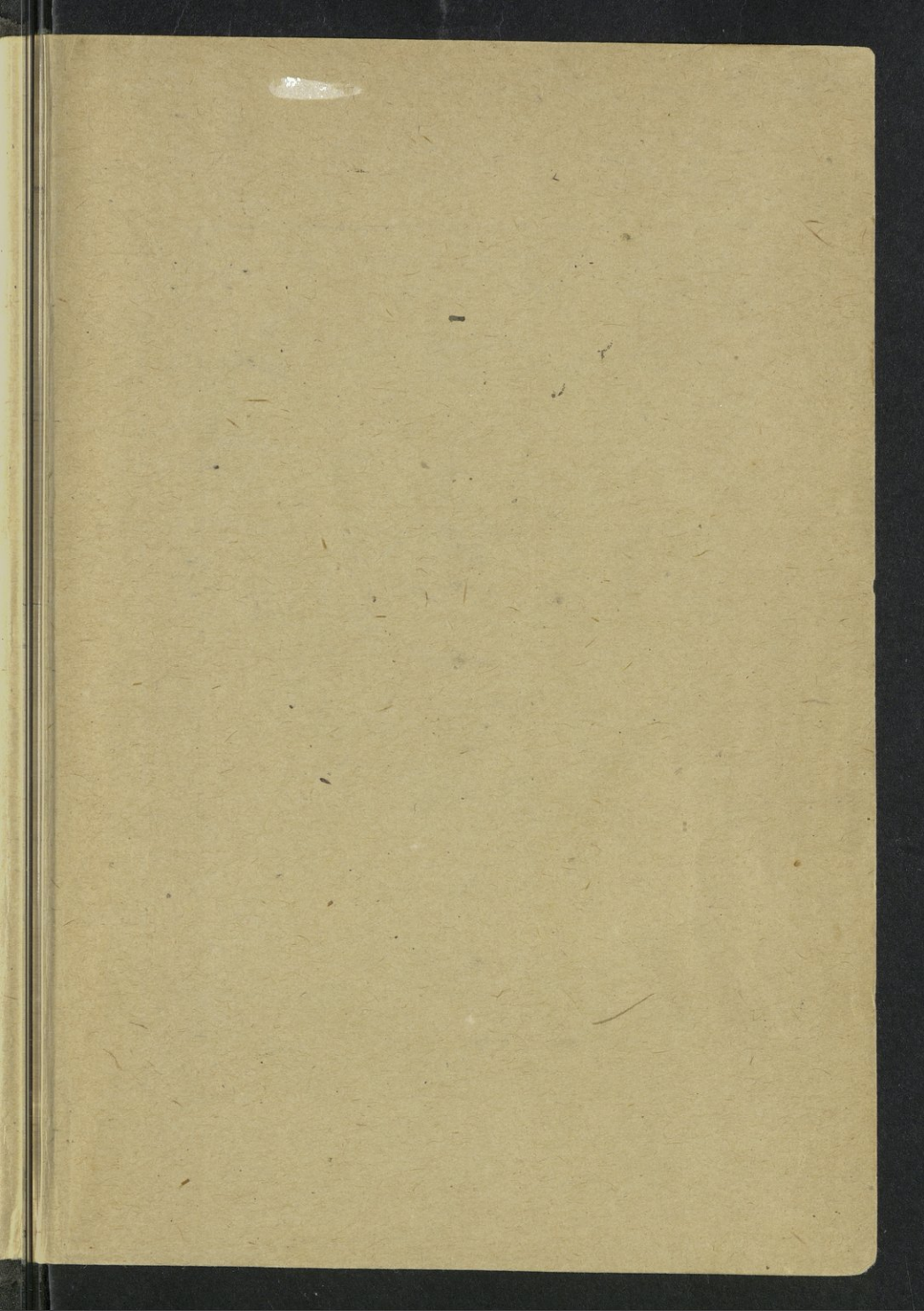


[HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/GROUPS/BOOKSPHILOSOPHY](https://www.facebook.com/groups/bookphilosophy)

# فلسفة الكتب









العقاد، عباس محمود  
رجعة ابي العلاء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01007202

American University of Beirut



1893

General Library

892.78  
M111Yara  
c. 1